

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقامات ابن الجوزي: دراسة تحليلية^(١)

شعبان محمد مرسي

تعريف بابن الجوزي:

هو الشيخ أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد، من نسل أبي بكر الصديق، رضى الله عنه، وينسب إلى ناحية من نواحي البصرة تسمى الجوزة. ولد هذا الرجل عام ٥١٠هـ تقريبا، وتوفي سنة ٥٩٧هـ. وقد نشأ عبدالرحمن يتيما؛ إذ مات والده وهو ابن ثلاث سنين، فعني به خاله الشيخ ابن ناصر، فحفظه القرآن المجيد، وعلمه الحديث الشريف، ولقنه اللغة والنحو، وكان الغلام نجيبا، نهما للعلم والأدب، فتبحر في علوم العربية والإسلام، خاصة الفقه، ودرس الطب؛ لأنه كان يراه ضروريا لعلاج البدن، كما أن الفقه لازم لشفاء الروح، وصلاح القلب.

ظل ابن الجوزي طوال حياته يقرأ ويفكر ويؤلف، ويخطب؛ ولذلك ترك ثروة قيمة من الكتب والرسائل، قدرها كاتبو سيرته

بحوالي خمسمائة كتاب، منها: "زاد المسير في علم التفسير"،
و"الموضوعات في الحديث"، و"المنتظم في التاريخ"، و"مناقب
عمر بن عبدالعزيز"، و"ديوان شعر" مازال منقوداً، و"المقامات"،
و"اللصائف في الوعظ"، وغير هذا كثير، نشر بعضه، وما زال الكثير
مخطوطاً.

كان أبو الفرج حنبلي المذهب، ثم استقل في التفكير، فبلغ
درجة الاجتهاد، وأصبح يكره التقليد؛ ولذلك حمل على المقلدين
كثيراً، كما كان شديد النقد لعلماء عصره؛ من فقهاء ومحدثين وقراء
وصوفية ونحويين ولغويين، وغيرهم.

وقد حظي الجانب الديني من تراث هذا العالم المسلم ببعض
الدراسات، ولكن الجانب الأدبي مازال قليل الحظ من الدرس
والعناية، فشعره مفرق في مؤلفاته لم يجمعه أحد حتى الآن - على
حد علمي - ولم يسع امرؤ في البحث عن ديوانه الضائع، صحيح أن
شعره في الزهد، بيد أن الزهد غرض مهم من أغراض الشعر العربي،
وهو جدير بالعناية.

وكنت كتبت "دراسة في خطب ابن الجوزي ومواعظه" من
الناحية الأدبية، ضمنتها كتابي: "الفنون الأدبية في العصر العباسي"
ص ١٢٠ - ١٤٨، وفي هذا الكتاب تعرضت لمقامات ابن الجوزي
تعرضاً سريعاً في الفصل الخاص بفن المقامات في ذلك العصر، ثم
رأيت أنها تستحق دراسة تحليلية كاملة، فكانت هذه الدراسة التي
أقدمها بكل سرور للقراء، آملاً أن تؤدي بعض الحق لهذا العالم

الأديب الذي قضى حياته عاكفا على العلم بأنواعه، والأدب

بغير زوال.

وقد نشر مقامات ابن الجوزي د. محمد نغش بالقاهرة سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، وقدّم لها بتعريف موجز للمؤلف، ثم وصف للمخطوطات التي اعتمد عليها في نشره، وقد بذل المحقق جهدا مشكورا في إخراج النص إخراجا صحيحا جيدا، غير أن دار النشر لم تكن بإعادة الطباعة مثل عناية المحقق بإعادة التحقيق.

كتب ابن الجوزي خمسين مقامة، والترجم العدد الذي سار عليه أكثر من كتبوا في المقامات أو حاموا حولها، فبديع الزمان كتب لينا وخمسين مقامة، وأبو محمد القاسم بن علي الحريري كتب خمسين مقامة، وأبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي ألف خمسين مقامة كذلك.

البطل والراوي:

واختار ابن الجوزي بطلا لمقاماته هو العقل وكناه "أبا التقويم" وأضفى عليه صفات طيبة فهو عالم كبير، نير البصيرة، صادق النصيحة، مشغول دائما بمعالي الأمور، حزين في أكثر الأوقات، يفضل العزلة، وهو فصيح بليغ وله أسماء كثيرة ولكن أشهرها "العقل" وما سأله سائل إلا أجابه جوابا شافيا، وما عرض له مريض إلا عالجه أحسن علاج، ويركز "أبو التقويم" دائما على حسن النية. ونيل القصد، وصدق العزم، ويبدو "أبو التقويم" في المقامات في هيئة واعظ، لا يملّ وعظه، وفي هيئة قاصّ يحسن ما يلقى على

الأسماع، وآونة يندو في صورة شيخ قد جرب الحياة وخبرها،
 فينصح الناس نصيح الأمين المحرب، وأحيانا يظهر في شكل رجل
 صالح وقور، يجلس في المجلس فلا يجرؤ أحد على الكلام حتى
 يسمح هو لهم، فيسأل السائلون فيجيب بالرمز والإشارة لمن
 يدركهما، ويصرح لمن قل فهمه، ويوجز ويطنب حسب ما يقتضيه
 الكلام والموقف، أو تبعا للمقام.

وأما الراوي فهو ابن الجوزي نفسه، أو هو وصاحبه الفكر،
 وملامح الراوى متعددة، فهو ضائق الصدر حيناً، وحيناً آخر مغموم،
 يحب السياحة، فيخرج إلى الصحراء أو إلى الحدائق الغناء، أو
 يضرب في الأرض كيفما اتفق، ولكنه يبعد عن الناس، ويؤثر الخلوة،
 وعادة ما يلتقى مع "أبي التقويم"، فيصحبه، أو يعرض عليه ما به من
 حيرة، لعله يهديه السبيل إلى النجاة، أو يشكو إليه ما به من هم أو ما
 أحاط به من غم، فيشير عليه بما يفرج كربته، ويشرح صدره، ثم
 يتركه "أبو التقويم" ويمضى لحال سبيله، على الرغم من رغبة الراوى
 في استمرار البقاء معه.

ويتم التعارف بين الراوى والبطل في أول المقامة، أو في
 وسطها أو في آخرها، وهو الأكثر، ويكون التعارف عن طريق
 السؤال عن اسمه، فيجيب "أبو التقويم" بأن اسمه العقل أو يقطع
 حروف هذه الكلمة، أو بقول: إن له أسماء كثيرة، أو يمضى دون أن
 يجيب عن هذا السؤال، وقد يعرفه الراوى من شكله أو علمه

وبلاغته.

وقصد المؤلف من مقاماته الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي،
ولذلك أدار مقاماته على هذه الغاية النبيلة، ووضع لها العناوين
المناسبة.

وقد ابتدأ الكاتب مقاماته بمقامة تدور حول إثبات وجود
الله، وأفضل الطرق لهذا الإثبات، وأيضا ذكر صفاته عزوجل، ويتن
رأيه في المشبهة والمعطلة، وقد وضع لهذه المقامة عنوانا هو "حكم
الأشياء" ص ٧. وهذا تحليلها:

وجود الله:

تناول في هذه المقامة دليل الإبداع على وجود الخالق، وكان
مرشده في هذه المقامة الفكر، الذي ابتدأ أبا التقويم بالسلام ثم
عقب باستفتاء عن وجود الله، وكان أصل السؤال "أفي الله شك؟"،
وقد اشترط السائل الدليل على الحق، فأجاب أبو التقويم بعد الشاء
على الله بأن من يبحث عن الحق بالحس يضل، لقصور الحس عن
إدراك النيب، واقتضاره على إدراك الظاهر، وإنما يعرف الإله بالعقل،
ثم أخذ العقل في الشرح، وكان تفسيره مركزا على أن الحسيات
برهان على وجود البارئ، وأن الطريق لفهم ذلك التدبر في هذه
المخلوقات، في السموات والأرض، وأيضا في خلق الإنسان من
نطفة، وما تمر به هذه النطفة من أطوار حتى تصير بشرا سويا، ويهتم
ابن الجوزي بهذه الأطوار، فتتبعها بدقة، ويعبر عنها بلغة جميلة، ثم
ينتقل مع المولود، فيصور لنا رضاعه، حتى إذا انتهت مدة الرضاع،
ونبتت الأسنان وقويت، يرسمها لنا ان الجوزي مبينا أنواعها

وفوائدها، فبعضها للقطع وبعضها للطحن، هذا فيما يخص الجسد، ثم يتحول إلى النفس، فيوضح أن الإنسان خلق جاهلا لا يدري من أمره شيئا، ولا من أمر هذه الدنيا، وفي هذا فضل كبير، إذ لو علم ما فيها لمت غما، وهو لا يزال في مبتدأ حياته، ثم يمن الله عليه بالعلم تدريجيا، وعبر هذه الفكرة العامة تتناثر أفكار أخرى رائعة على الرغم من أنها جزئية، فمثلا يعطينا فكرة عن قيمة البكاء لدى الأطفال فهو مفيد للبدن، لأنه يحفف الرطوبات التي في الرؤوس، ويدل الأم على أن ابنها جائع، وقد فات ابن الحوزي أن البكاء يقوي جهاز النطق لدى الأطفال، ويريح الأعصاب، ويتحفن الكاتب بفكرة طيبة عن الذاكرة التي وهبها البارئ للمرء، فهي تحتفظ بمعلومات كثيرة، وهذا التذكر بالتأكيد نعمة تساعد على تطور الحياة والحضارة، وقد يعرض لهذه الذاكرة النسيان، وهو نعمة أيضا يتغلب بها الفرد على الآلام، ويتسلى بها عن فقد عزيز، ويموت دفين الحقد بالنسيان، فيواصل الإنسان الحياة يوما بعد يوم.

ويرجع المؤلف كرة أخرى إلى الجسم ونظامه في العمل، فيتأمل جهاز الهضم، ويورد القوى السبعة الخاصة بعملية الهضم، وتوزيع الغذاء على أعضاء الجسد، وهي على التوالي: القوة الطالبة للغذاء، والقوة الجاذبة له والتي تخلطه بإفرازات الكبد، والثالثة التي تساعد على إنضاجه، والرابعة التي تخلطه، والخامسة التي تميز بين طيبه وخبيثه، والسادسة التي تحمله إلى أجزاء الجسم، كل حسب حاجته، والسابعة التي تتخلص من تفلّه، فتدفعه إلى خارج الجسد،

وكلها عمليات منظمة تدل بلا ريب على وجود خالقها، الذي يراها على نظام محكم دقيق، ويسير الكاتب في تأملاته العميقة بصبر ودأب، فيوجه المتلقى إلى النظر في جهاز النطق، وطريقة تكوينه وعمله، فهو كالمزمار الكبير، وهذا الجزء من المقامة يطلعنا على معرفة ابن الجوزي الحيدة بألة النطق، وأقسامها، ابتداء من الرئة حتى الأنف والشفيتين، وهو يمثل جزءا من معرفة سلفنا بعلم الأصوات ومخارجها.

ويترك ابن الجوزي الإنسان إلى الأرض، فيبحث في امتدادها وثباتها وزلزالتها، ورخاوتها وما فيها من أنهار وأشجار، وما بث فيها من حب للعباد. ومن أب أو عشب للبهائم، ويفكر في حال الشجر، كلما طالت فروعه امتدت جذوره في التربة، فيتم له التوازن والوجود الجميل، وبينما كثير من الشجر الأخضر يبدو في الشتاء عاريا شبه يابس إذا به مع مطلع الربيع يورق ويزهر، فيخلب العيون والألباب بجماله، ويختار الكاتب من الأشجار شجرة الرمان، وينتقي ثمرها ليرينا عجيب صنع الله، فالرمانة مرصوصة الحب رصا هندسيا بديعا، ويحيط بهذا الحب غطاء من الخارج، وشحم من الداخل، ولفافات تغلف هذا الحب، فيحفظ ويتغذى ويكبر حتى يبلغ وقته الموقوت، وهذا دليل عظيم على قدرة البديع.

ومرة أخرى يعود المؤلف إلى الإنسان وخلقها، فيستنبط منها البرهان على المسألة التي أدار عليها مقامته، وينتقي من المرء عينه ويعرض كيف تبصر، وفي أثناء تفسيره لعملية الإبصار ينتقل إلى

الطبيعة، إذ البصر لا يرى إلا في ضوء، والضوء من الشمس، والشمس تشرق نهاراً، وتأفل ليلاً، ومع إشراقها تدب الحركة والحياة في الكون، فتتم الرؤية، وينطلق العمل، ومع غيابها يحدث السكون والراحة، وهما ضروريان لاستعادة البشر لقواهم، كي يواصلوا الحياة والجد فيها، ويعرض صاحب المقامة للشمس والقمر والنجوم والكواكب واختلاف الفصول، وعلاقة هذه الفصول الأربعة بحاجات الإنسان والحيوان، وأهميتها للنبات وأهم شئ ينبه عليه القارئ في هذه النقطة هو أن هذه الفصول متداخلة، ويتم الانتقال من أحدها إلى الآخر بالتدريج، لكي لا تفسد المخلوقات، وخاصة أبدان البشر.

ويورد ابن الجوزي ضمن الشواهد المحسوسة في الطبيعة النار وخلقها، وأهميتها للناس، وجعلها مستكنة كالمخزون، إذ لو انتشرت لأحرقت كل شئ، ولما تمت الحكمة من خلقها، ومن النار ينتقل ابن الجوزي في تأملاته إلى عالم الطير، فيتأمل من حيث شكله وأجنحته وريشه ومنقاره، ومن حيث أنواعه ومواطن رزقه، وانتشار بعضه بالنهار وبعضه بالليل، وما في ذلك كله من حكمة تدل على الحكيم الخبير.

ومن الأدلة المحسوسة مسألة الغريزة عند الحيوان، ويراهما ابن الجوزي إلهاماً، هذا الإلهام يشبه العقل عند الإنسان، وبه تشق البهائم طريقها في الحياة، وتحافظ على بقائها.

وبعد هذه الأمثلة الدالة على الخالق، يكتفي أبو التقويم،

ويشير أنه لا بد أن يتوقف عن سرد أمثلة أكثر حتى لا يمل سامعه، ولكنه يبين أصناف الناس حيال هذه المسألة والأدلة عليها، وهم صنفان: نيرو الفهم، وعمي البصيرة، أما أولوالألباب ففهموا الأدلة بعقولهم، واستنبطوا من المحسوسات شواهد لا تحصى على وجود بديع السموات والأرض فاستراحوا وأراحوا، وأما من عميت بصيرته، فلا يدرك شيئاً، لأنه قصد أن يدرك بالحسن ما لا يدرك إلا بالعقل" على حد تعبير المؤلف.

غير أن الكاتب لا يقف عند هذه المسألة، وإنما يسأل أبا التقويم هذا السؤال: أيها العقل أفتحيط علما بالمعبود؟، فيجيب العقل أنه قد استدل بالمخلوقات على الخالق، وأن إدراك ذات الله من المحال، لضعف العقل عن ذلك، ثم يضرب العقل لسائله مثلاً هو أنه إذا سار إنسان في مكان خال من كل شيء ثم عاد إليه فيما بعد، فوجد فيه بناء فمن المؤكد أنه سيعرف ان هذا البنيان قد بناه بان وإن لم ير هذا البناء.

ويتابع الكاتب رحلة الفكر مع صديقه أبي التقويم، فيطلب منه أن يذكر له شيئاً من صفات الله، بعد أن تبين أنه من المستحيل إدراك ذاته، وكان ما أورده العقل كله يدور حول **ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير**، وأن الله واحد عليم حكيم قهار، رءوف رحيم منعم على عباده، ويتعرض ابن الجوزي للمشبهة، فيستفهم من العقل موقفه منهم، فيحجبه بأنهم جهلاء، وكذلك المعطلة، وإنما الطريق القويم بين هذين المسلكين.

وتنتهي المقامة بأن يصمت العقل عن الكلام، ويقر المؤلف أن إجابات أبي التقويم قد شفته، وأنه قد صار مؤمنا راسخ الإيمان، فيشكر صديقه الفكر الذي دله على أبي التقويم العقل، ذلك الذي يقنع من استفتاه.

نخلص بعد هذا التحليل إلى القول: إن هذه المقامة تدور حول موضوع من موضوعات علم الكلام، وهي مسألة وجود الله، والأدلة التي تثبت هذا الوجود، وقد اعتمد دليل الإبداع للبرهنة على ذلك الوجود، وأن البصيرة هي التي تدرك ذلك، وكذلك قضية الصفات من مسائل علم الكلام، وعرض للفرق كالمعطلة والمشبهة، ويتبين أن الصراط المستقيم بينهما، هذه المسائل وضحها ابن الجوزي بأسلوب جميل، يعتمد على الاستعارات والكنيات والسجع والجناس والخيال بصفة عامة، فأبعد عن هذه القضايا جفافها الذي تتصف به في علم الكلام والفلسفة الإسلامية.

الوعظ:

وبعد أن أنهى ابن الجوزي مقامته الأولى التي خصصها لإثبات وجود الله، انتقل انتقالا طبيعيا إلى الوعظ، وهو وسيلته الأولى في الإصلاح الأخلاقي، وارتكز الكاتب في وعظه على عرض قصص الصالحين والطلالحين، وتبيين مآل كل فريق، وأيضا توجه إلى الوعظ المباشر في مقامات أخرى، وهو يراعي بطريقته هذه أحوال الناس، فمنهم من يؤثر فيه الأسلوب المباشر في النصح ومنهم من يستهويه القصص أكثر من سواه.

وكان القرآن مصدرا مهما لابن الجوزي، إذ استمد منه مادة غزيرة، أقام عليها مقامته الوعظية، ولذلك نرى ابن الجوزي يعرض قصص الأنبياء وأقوامهم في المقامة الثانية والثالثة والرابعة، وفي الخامسة والسادسة يذكر سيرة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وتكوّن كتب السيرة مصدره الأول في هاتين المقامتين.

وفي المقامة الثانية صورة المجلس سمر، كان في المجلس المؤلف وبعض صحبه المقربين فتاقوا إلى الأفاضل المفيدة، فأخبرهم ابن الجوزي أن أفضل من يقوم بهذا الأمر أبو التقويم، ووصفه لهم بأنه بكل علم عليم، وهي مبالغة فيها شطط، ما كان أغنى ابن الجوزي عنها!، وإنما حمله عليها طلب السجعة، فاتفق الحاضرون على هذا الرأي، وأرسل ابن الجوزي إليه فحضر فطلبوا منه أن يحكي لهم شيئا من القصص، فبدأ بقصة آدم متأثرا بالقرآن، مع مزجه لها بشيء من خياله هو، ثم ما كان من هبوطه إلى الأرض، والذي هوى بآدم إلى الشقاء هو عصيانه الأمر الإلهي، وطاعته لوسوسة الشيطان، وكذلك فإن إبليس هلك لرفضه أمر الله له بالسجود لآدم، غير أن آدم تاب، فغفر الله له، وظل الشيطان على عناده، فكانت عاقبته السوءى.

وعقب أبو التقويم على هذه القصة بقصة هاروت وماروت، وبيّن أن الذي أوقعهما في الردى اتباع هواهما، ولم يقتصر أبو التقويم في هذه القصة على ما ورد في الذكر الحكيم، وإنما حشاها بالإسرائيليات، وما حاكه الخيال الشعبي أيضا، وهذا عجيب من

المؤلف، إذ هو رجل خبير بالحديث يعرف الصحيح من الموضوع، وقد ألف كتابا في الموضوعات، ولكن يبدو أنه تحوّل في هذه المسألة، لعلمه أن القارئ يعرف أن المقامات فن من فنون القصص، ودعامته الأولى الخيال والإثارة.

وما إن ينتهي أبو التقويم من قص حكاية هاروت وماروت، حتى يعجب به السامعون فيرغبوا في أن يحكي لهم قصة نوح، فيحكيها بإيجاز ملحوظ مركز على هلاكهم، وسببه غيهم وعنادهم، فإن قوم نوح صموا آذانهم عن دعوة هذا النبي، وأصروا واستكبروا استكبارا، فما كان من رسولهم إلا أن دعا عليهم بالبور، فتم ذلك.

وتنتهي قصة نوح مع قومه، فيستزيد الجمع أبا التقويم، ليقص عليهم قصة عاد فيوردها عائدا بهلاكهم إلى اتباع الهوى، ثم يطلب المستمعون حكاية ثمود، وقصة قوم لوط، وقصة شعيب، فيحكيها أبو التقويم بصبر، وهو يقتبس من القرآن.

ثم يرجو الحضور أبا التقويم أن يحكي لهم حكاية بلعام، وهي قصة لم ترد في القرآن، وإنما وردت في الكتاب المقدس، ومحورها أن هذا الرجل كان يظهر الصلاح، وباطنه فاسد، وسرعان ما انكشف أمره عند التجربة، فهلك بريائه مع الهالكين.

ويقص أبو التقويم قصة قارون، ويقتبس من القرآن، ولا يدع أن يوشيهها بالأعداد الهائلة التي تحرك الخيال، فقد قال: "كانت مقاليد خزائنه وقرستين بغلا، والذي فاتته أعلى وأغلى...، وركب معه ثلاثمئة جارية"، وقد استولى الغرور والهوى على قارون فهلك.

وتلي هذه القصة قصة سبأ وقومها، فقد كانت ديارهم جنانا، وكان
 مأوهم نميرا، وكان الأمن مبسوطا في ديارهم، فغرتهم الغرور فلم
 يشكروا، واتبعوا أهواءهم فأهلكوا بسيل العرم.

وقد سعد السامعون بهذه القصص، واعتبروا بعاقبتها، وأرادوا
 مزيدا من الحكايات، لاستكمال العبرة، فرجوا أن يشرح لهم أبو
 التقويم قصص أولئك الذين أنعم الله عليهم، فشكروا النعمة،
 وأحسنوا جوارها، فدامت لهم، ولكن أبا التقويم يمتنع عن الكلام،
 ويظهر لنا بمظهر الواعظ العاقل الذي لا يمل سامعيه، فيعد السامر
 بأن يحكي لهم ما طلبوا في الليلة المقبلة.

ومجموع هذه الحكايات يمثل المقامة، والخيط الذي يربطها
 جميعا هو النهاية المؤلمة نتيجة الأهواء، والإعراض عن الحق،
 ومقاومتهم للمصلحين، وقد بدأت المقامة بداية جميلة وسارت على
 ذلك، غير أنه تخللها كلمات عسيرة الفهم، فأفسدت بعض جمال
 المقامة، وشقت على المتلقي، وكان الحدير بابن الجوزي أن يبعد
 عن حوشي الألفاظ وغريبها، فإن من الفصاحة استعمال السهل، إذ إن
 غرض الكلام الإفهام، ولعل الكاتب أراد أن يشير إلى أن بعض
 الوعاظ والقصاص، يستعمل هذا الكلام المهجور فلا يصل المعنى
 إلى السامع، ويضيع الوقت هباء، كما أن بعضهم يطيل حتى يمل،
 فيكون مثله كمثل الطبيب الخائب الذي لا يحسن علاج المرضى،
 وقد رمى المؤلف إلى علاج هذه الظاهرة، فليس من المعقول أن
 يقول ابن الجوزي في هذه المقامة في قصة لوط "وسار بهم في

طرفسان العقاب إلى عوطب العطب، فاهرمعوا، وكانوا في كن صافي الصفات، فمروا إلى مر الرنق، فافرنعوا، وهمس هميسعهم، وهل لمثلهم إلى الوهل والوها، ولات حين مناص، وازدرقعوا، و برقط المخرنشم بعد أن بهنس وبلهس فبلطح، وحزن المبرنشق بعد أن زهزق فبلسم وكلح" ص ١٩ .

من خلال ما كتب ابن الجوزي - غير المقامات - نعرف أن أسلوبه يمتاز بالسهولة والوضوح، فمثلا كتابه "ذم الهوى" و"الأذكياء"، "والحمقى والمغفلين" (٢) وغيرها يبدو فيها الأسلوب الواضح الجميل، أما ذلك المقطع الذي اقتطعناه من المقامة الثانية فيظهر الأسلوب وعرا مستغلقا كأنه كلام المشعوذين.

وقد أتبع ابن الجوزي كل مقامة من مقاماته بشرح الغريب فيها، وهو مشكور على ما صنع، وربما كان يرغب في إحياء بعض مفردات اللغة العربية التي ماتت، ولكن هيهات! فالحوشي تنفر منه المسامع، و تشمئز النفوس.

وفي المقامة الثالثة ابتداء أبوالتقويم قصصه بحكاية أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام منذ ولادته، ولم يسر في قصته بترتيب متسلسل، وإنما اختار منها بعض الأجزاء التي تفيد العبرة، انتقى منها محاجة إبراهيم عليه السلام للنمرود، وإفحامه له بالدليل القاطع، ثم اختار أيضا القسم الخاص بإلقاء هذا النبي في النار، ونجاته منها بأمر ربه،

وانتقل الحاكي إلى الجزء الخاص بهاجر وابنها إسماعيل، وترك إبراهيم لهما في الوادي الجديب، ومن الله عليهما بزمزم، وأشار إلى الذبح إشارة مقتضبة.

ولما أنهى حكاية إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام، سأله الحاضرون عن كان في عصره من الملوك، فقال: ذوالقرنين. وأورد قصته ليشبع نهم أولئك السمار، وخلص من هذه القصة إلى قصة يوسف، بناء على طلب المتلقين، فابتدأها بحيلة إخوة يوسف، ونجاة هذا النبي، ثم شغف امرأة العزيز به، ودخوله السجن، وخروجه منه، ثم مجيء إخوته يسترفدونه فيعطيههم، ومن البين أنه اختصر هذه القصة اختصاراً شديداً، ويرغب المستمعون في أن يحدثهم عن أيوب المبتلى، فأوضح لهم أنه قد كثر ماله، وزادت أعماله، ثم تسلط عليه إبليس، ولكنه لم يقبل وسوسته، فاستمر في البلاء سنين، ولم يشك، وإنما كان دائم الذكر لربه، ثم فرج عليه، ورزق رزقا واسعا أكثر من ذي قبل.

ويسأله ابن الجوزي ان يذكر لهم ما جرى لموسى، فيورد ما حدث له، ويبسط القصة منذ كان طفلا، ويتبعها كما جاءت في الكتاب العزيز، ويهتم أكثر بالحوادث الكبرى في سيرة هذا النبي، فيشير إلى قتل موسى للمصري، وفراره إلى مدين، وزواجه من بنت شعيب، ثم هبوط الوحي عليه بعد أن سار بأهله، وما كان من شأن بني إسرائيل معه، ويذكر حكايته مع العبد الصالح، واعتراضه على

أفعاله، وينبها ابن الحوزي على لسان بطل مقاماته أبي التقويم، على أن الإنسان أحيانا يتهم الآخرين، والحال أنه هو فعل هذا الأمر أو يفعله، فبينما اعترض موسى على العبد الصالح حين قتل الغلام لم يذكر أنه قتل ذلك القبطي، ولما خرق العبد الصالح السفينة خاف موسى من الغرق، ونسي أن أمه القته في اليم ونجاه الله، وكذلك حينما بنى ذلك العبد جدار اليتامى الذي كان يريد أن ينقض، رغب موسى في أن يطلب صاحبه أجره، وفاته أنه سقى لابنتي شعيب دون مقابل، وعند هذه الفكرة ينهى أبو التقويم حديثه الممتع على وعد اللقاء في ليلة بعد الغد، فينفض السامر المشتاق للقصاص، وهو ينتظر هذه الليلة انتظار الولهان.

وفي المقامة الرابعة طلب السمار أن يحكي لهم قصة داؤد، فسردها عليهم مركزا على ما أوتي داؤد من حلاوة الصوت في تسايحه، والابتلاء الذي ابتلي به حينما قضى على عجل لأول شاك دون أن يسمع قول الخصم الآخر، ثم استغفاره وتوبته، وقبول الله ذلك منه، وغفرانه له، وما إن تنتهي هذه القصة حتى يطلب الجمع أن يقص عليهم قصة سليمان فيحكيها، مبتدئا بما أوتي هذا النبي من الخير، وما كان يؤديه من الشكر، ثم تلاه بحكاية النملة التي حذرت أخواتها من الهلاك تحت أقدام سليمان وجنوده، ومعرفة سليمان بذلك وتبسمه من قولها، ثم عقب بذكر ما حدث بين هذا النبي وملكة سبأ، وإقبالها مسلمة معه، وتنتهي هذه الحكاية، وتبدأ قصة عيسى بن مريم فيفتتحها منذ أن اشتهد امرأة عمران أن يكون لها

ولد، تهبه لله، ليخدم بيت المقدس، وينشر الخير، فيعطيها الله بنتاً هي مريم، ويمشي مع القصة بإيجاز، فيعرض لكفالة زكريا لمريم، ودعوته أن يرزقه الله الذرية الطيبة، ثم تكبر مريم، وتلد المسيح بأمر ربها، ويبيّن حرج موقف أم عيسى ساعة أقبلت إلى قومها تحمله، فسألوا عنه سؤال منكر، فأشارت إلى ابنها فردّ عليهم ردّاً بليغاً، وينهي الحكاية عند هذا الحد، وينتقل إلى قصة يحيى إجابة إلى رغبة المستمعين، فيذكر أن أمل زكريا في النسل كان قد انقطع، ولكنه بعث من جديد، عندما رأى هذا النبي ما عند مريم من الخير العميم، على الرغم من عدم كدها، فسألها عن هذا الخير، فأجابته، هو من عند ربها، وهنالك دعا زكريا ربه، فاستجاب له، ووهبه يحيى، وكان يحيى صالحاً منذ طفولته، حتى إنه لم يكن يقبل دعوة أقرانه للعب، وإنما كان عاكفاً على العبادة.

وبانتهاء قصة يحيى يطلب المسمتعون حكاية أمل الكهف، فيقصها عليهم تقريبا كما وردت في القرآن الكريم، مع توشيته لها بشيء من الخيال، وتنقضي هذه المقامة على أمل أن يسرد عليهم قصة الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - فيعدهم أن يحكيها لهم الليلة التي بعد الغد، فينفض الجمع على أمل اللقاء في الموعد المحدد.

وأما المقامة الخامسة والسادسة فخصصهما المؤلف لسيرة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -، وكان أبو التقويم قد وعد مستمعيه أنه سيقصها عليهم في ليلة بعد الغد، فانتظروه فلم يحضر

سريعا، وإنما طال غيابه، وبان على وجوه القوم الغضب والحزن، ثم ظهر أبو التقويم فجأة، معتذرا عن تأخره بالمشاغل، وبعد الشقة، وهنا ابتدره القوم طالبين قصة نبيهم، فلخصها أبو التقويم تلخيصا شديدا، مركزا على الأصل الكريم للنبي صلى الله عليه وسلم، وعرفهم أنه لما ولد أرضعته ثوية، ثم حليلة السعدية، وكان إرضاعها له في عام جذب، ولكن حلت بها بركته، فتبدل القحط رغدا، ثم جاء الملك وشق صدر الرسول وشفاه، فصار خالصا كله لله، وانتقل القاص إلى مقطع آخر من سيرة المصطفى، وهو خروجه مع عمه للتجارة، وهناك في تيماء رآه بحيرا الراهب، فأوصى عم النبي أن يحفظه لأن عليه سيما النبوة، ويمضي أبو التقويم إلى تحنث النبي في غار حراء، ثم هبوط الوحي عليه، وكان أول ما ابتدأ به نزول ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ ثم يقص عودة الرسول إلى خديجة يرتجف، فتتهون عليه الأمر، وتعلل ذلك بحسن خلق النبي، وصلته الرحم، وعطفه على الناس، ثم تصحبه إلى ورقة بن نوفل، فيطمئنهما، بأن ما جاءه هو النماموس الذي كان يأتي إلى موسى، ويدع أبو التقويم سيرة النبي عند هذا الحد ليقارن بينه وبين غيره من الأنبياء، وتظهر المقارنة تفوق النبي محمد صلى الله عليه وسلم، على غيره من الأنبياء، وتبدأ المقارنة بين النبي وغيره من إخوانه في النداء، ذلك أن الله نادى كل نبي باسمه: يا آدم، يا إبراهيم...، وأما رسولنا فقد ناداه بقوله: يا أيها النبي...، يا أيها الرسول...، وحينما ذكر الله نبينا باسمه فذلك للتعريف فحسب، ووجه آخر من وجوه المقارنة

يتمثل في المعجزات التي أيد الله بها الأنبياء، فسائر الأنبياء كانت معجزاتهم مخلوقات الله، كالناقة والعصا والطير، ولكن معجزة نبينا كانت كلام الله، وثالث الأمور في المقارنة هو أن كل الأنبياء بعثوا إلى أقوامهم، أما نبينا فقد بعث إلى الناس كافة، والرابع أن النبي قد حاز من الفضائل ما حازه غيره من إخوانه ولكنه زاد عليهم فيها، ويؤيد أبو التقويم ما يقول بالأدلة، وهي تؤكد أفضلية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. على غيره، فمثلاً: لم يصبر نوح على أذى قومه، فدعا عليهم بالهلاك. فهلكوا، ولكن رسولنا دعا لقومه بالهداية، رغم اذاهم له، فهو قد ربا في حلمه على نوح.

وفي المقامة السادسة يكمل أبو التقويم قصة نبينا، فيبدأها بموقف قريش من الرسول وتآمرها عليه، وخروجه إلى الغار، ومتابعتها له للقضاء عليه، فنجاه الله منهم، وكان من وسائل النجاة أن نسحت عنكبوت على باب الغار الذي اختفى فيه المصطفى، وعششت حمامتان على باب الغار نفسه، فكان ذلك داعياً لانصراف أعداء النبي عنه، وعدم تفتيش ذلك المكان، ثم لما خرج النبي وسار تجاه المدينة أوشك سراقه بن مالك أن يلحقه، فغاصت قوائم حصانه في الرمال، فاستنجد بالرسول، واستأمنه فأمنه، ورجع دون أن يمس الرسول بأي أذى، ثم انتقل أبو التقويم إلى بدر، وبين ما كان من أمر هذه المعركة، وتأيد الله لنبيه بالملائكة المنزلين، وفي هذه الموقعة قتل عدد كبير من صناديد المشركين، وعرض أبو التقويم لحال النبي

في الآخرة، فهو أول من يبعث، وهو وحده الشفيع، وأما غيره من الأنبياء فليس له هذا المقام المحمود.

ويختتم أبو التقويم قصصه بالدعاء أن يحييه الله ومن معه على كتاب الله وسنة رسوله، وأن يجمعه ومستمعيه في جنة عدن، ويعلق الحاضرون على حديث أبي التقويم بأنهم لم يسمعوا أحسن منه، ويودعون به عيون دامعة، وقلوب واجفة، ظنا منهم أنهم لن يلقوه بعدها، ولكنه يطمئنهم بأنهم قد يلتقون فإن كلمة الوداع إذا قرئت من الآخر تكون: "عادوا".

هاتان المقامتان وما سبقهما من الثانية والثالثة والرابعة، أي المقامات التي موضوعها القصص مليئة بالإشارات، وتقتضي قارئاً مثقفا ليفهمها حق الفهم، وليكمل ما فيها من حذف، فإن أبا التقويم كان يكتفي بالإشارة إلى بعض المواقف، كذلك فإنه كان يأتي ببعض الآيات ويترك الباقي لثقافة المتلقي أو القارئ، كقوله في المقامة الثانية: "ثم أمر الملائكة بالسجود فتطهروا من غدير ﴿لَاعْلَم لَنَا﴾ ص ١٤، وهذا من قول الله ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ البقرة، آية ٣٢.

وأما الجانب الثاني من الوعظ، وهو الوعظ المباشر، فقد خصص له الكاتب تسع مقامات هي: المقامة التاسعة وعنوانها: "في إيقاظ الغافلين" ص ٧٢، والمقامة السابعة عشرة: "في المواعظ" ص ١٣٥، والمقامة السادسة والعشرون "ذم الدنيا ومدحها" ص ٢١٢،

والمقامة الحادية والثلاثون: "في التعازي" ص ٢٤٤، والمقامة الرابعة والثلاثون: "في وعظ السلطان" ص ٢٦٨، والمقامة الخامسة والثلاثون، في وصف واعظ: ص ٢٧٤، والمقامة التاسعة والثلاثون: "في الوعظ" ص ٣١٠، والمقامة الرابعة والأربعون: "في الوعظ" ص ٣٥٥، والمقامة الخامسة والأربعون "في الأحاجي والمكاتبة والمواعظ" ص ٣٦١.

وتفصيل الأمر كما يأتي:

عرض المؤلف في المقامة التاسعة حفل زواج، الزوج هو الهوى، والزوجة هي الدنيا، وقد اجتمع خلق كثير في هذا الاحتفال، وكان يغنى في الفرحة مغنّ جميل الصوت، حسن الشكل، تساعده مغنية حسناء، تخلب الأبواب بحلاوتها، وكان الشراب يدور، والضحك والسرور يملأ أرجاء القصر الذي كانت فيه حفلة العرس.

وفجأة يدخل عليهم شيخ ناصح أمين ويأخذ في إرشادهم إلى سواء الصراط، ويبيّن لهم ما هم فيه من الغلط، ويذكّرهم بالآخرة، ويتكفي في تذكيره لهم على الموت الذي يطلب الإنسان، ويترك الديار بلاقع، وتؤثر موعظة هذا الواعظ في الحاضرين جميعاً، لأنه صادق يخرج كلامه من قلبه، وهو مؤمن بكل ما يقول.

ولم يكن هذا الشيخ معروفاً لديهم، فأحبوا أن يعرفوا اسمه ونسبه، فأنبأهم أن اسمه الحجي، وأن كنيته أبو التقويم، وليس له أب، فإن الله خلقه بقوله: كن، فكان.

وقبل أن ينصرف هذا الداعية المصلح، يدعو الناس إلى أن يتسابقوا في الخير، فإن الأنساب لا قيمة لها، إذا لم يصحبها عمل

صالح، وإيمان راسخ، لقد كان إبراهيم نبيا، وأبوه آزر كافرا، فلم يغن عنه شيئا، وكان أبو جهل كافرا، وكان عكرمة ابنه مؤمنا، ومات أبو طالب عم النبي على ملة عبدالمطلب، ومات العباس عم الرسول على ملة الإسلام.

وبعد هذه الموعظة البليغة انصرف أبو التقويم، وهو يطلب منهم شكر نعمة العلم.

وفي المقامة السابعة عشرة يتغشى الراوي غم بالغ، فيخرج طالبا الترويح عن نفسه، ويذهب إلى مجلس ذكر في المسجد، فإذا بشيخ هناك، عالم راسخ، يعظ الناس ويفتيهم، وقد حضر مجلسه خلق كثير، فتوسط الراوي، وقعد بين المستمعين، فأخذه حديث الواعظ لحلاوته ولدقته وبلاغته، ولحسن هيئة ذلك العالم وجمال سمته.

ويحفظ الراوي كثيرا من كلام المتحدث، ويدور حول التحذير من المعاصي، والدعوة إلى التقوى، ويود الراوي إعادة الحديث، ولكن الرجل لا يعيد، فطريقته في الوعظ لا تقبل الإعادة، لأن الناس يملون الكلام المعاد، وينطلق المتكلم في كلامه على سحيته.

وتتوالى على الشيخ الأسئلة، وأول سائل كان صبيا، قد عق والده، ثم ندم على فعلته، واعتذر لأبيه، إلا أن أباه لم يقبل له عذرا، فأقسم الشيخ على أبي الصبي إن كان حاضرا في المجلس أن يعفو عن ولده، فيقوم الرجل، ويقول: إن ابنه قد شتمه، ويتدخل الواعظ

بالإصلاح بينهما، فيقبل الأب ويصفح عن ابنه.

وسأله سائل آخر عن علاج لمرضه، وهو أنه أحب الدنيا حتى شغلته عن كل شيء، فأمره الشيخ أن ينظر في عيوب المحبوب، ويتفكر في العواقب، وهذا أنجح علاج.

ويتوب في ذلك المجلس شبان كثيرون، ويقصون شعورهم الطويلة، وهنا تبدو لنا بعض ملامح المجتمع العباسي، في عصر ابن الجوزي، فقد كان الشبان المستهترون يطيلون شعورهم، ويعبون من اللذات، ثم يرجع بعضهم إلى جادة الصواب، عندما يسمعون واعظاً صادقاً.

ومن الصور الاجتماعية الأخرى الواردة في هذه المقامة تواجد بعض الحاضرين، وصياحهم وتمزيق ثيابهم، كأنهم مجذوبون، فينهرهم الشيخ، ويعلمهم أن المهم ليس تقطيع الثياب، إنما هو البعد عن المعاصي.

ويتكلم بعض الناس في مجلس الذكر، بينما الشيخ يتكلم، فيغضب الرجل وينهر المتكلمين، ويصفهم بسوء الأدب، وكان في هذا العالم حدة شديدة، وقام الناس واعتذروا إليه وأرضوه، فرضي، واستمر في الحديث، ولكنه يفتخر بنفسه، ويرى أنه أبلغ الناس جميعاً، ثم يمضي إلى بيته، ويتبعه الراوي ليستفيد منه، فيسمح له ويبيت عنده، فيزول همه، ثم يعود الراوي إلى داره في اليوم التالي.

والمقامة السادسة والعشرون موضوعها: ذم الدنيا ومدحها، وهي مقامة وعظية كذلك، والواعظ فيها عابد زاهد، يتكلم بفطرتة، قد

تلقي الحكمة من تفكيره الخاص في الملكوت، وتبدأ بضيق الراوي من وطنه، ومحاولته الخروج من هذا الكرب، لذلك قرر السفر، وخرج إلى الطريق ضاربا في الفجاج، ليس له غرض إلا انشراح صدره، وأثناء تجواله يقابله تعساء من أمثاله، قد ضاق صدرهم بأهلهم وبلادهم، ففروا سائحين لعلمهم يستريحون.

وكان يوم اللقاء قائظا، فنقد الماء الذي معهم، واستولى عليهم اليأس من كل مكان، ثم انفرج الكرب برؤية عابد في الصحراء قد أضنته العبادة، و طحنه الزهد، فمالوا إليه وسلموا عليه، فحياهم، وأطعمهم مما لديه من التمر، وسقاهم.

وبعد أن أكل هؤلاء المسافرين الأشقياء، أخذوا بأطراف الأحاديث، ثم انحصر كلامهم في ذم الدنيا، وبيان خصائصها الكريهة، ويبدو من ذمهم للدنيا ما يجري على ألسنة بعض الخطباء من أن الدنيا دار مصائب، وأن مصيرها للزوال، والغرور فيها كثير، والترح أضعاف الفرح، والشر مخيم فيها، والخير فيها نادر، ولما انتهى هذا الحديث البائس، اندفع العابد منكر ما يقولون، مينا قيمة الدنيا، فهي لا تدم لذاتها، فقد خلقها الله خلقا جميلا، فيها أنهار وبحار، وزروع، وثمار، وشموس وأقمار، وحر وقر، ومسالك ودروب، وفيها أرزاق المخلوقات، فإذا استعملها الإنسان بالتي هي أحسن جنى خيرا كثيرا، وكان من المقربين، وإذا أساء فالذنب ذنبه، والدنيا منه براء.

ويضرب العابد الأمثال ليرشد أولئك الحيارى، ويختار نماذجه من الأنبياء، فالخليل إبراهيم يلقي في النار، ويصبر، فينجيه الله منها، ويبتليه الله بذبح ولده، فيصبر هو وابنه، فينقذهما الله، ويوسف يختبر بما عرضته عليه امرأة العزيز، فيبتعد عن الفاحشة خشية لله، فيغيثه الله، ويرفعه مكانا راقيا، والنبى - محمد صلى الله - عليه وسلم يجوع حتى يؤثر الجوع في بدنه، فيشد الحجر على بطنه، ويحمد الله ويشكره، وأصحابه يجاهدون في سبيل الله، ويتسابقون إلى الشهادة، وكل هذه الأعمال الراقية، والمواقف الصالحة تحققت في الدنيا، فلا يصح - إذن - أن تدم، وإنما يجب أن نستغلها أحسن استغلال.

ويبين العابد أن المذموم في الدنيا فعل الجاهلين، الذين لا يعتبرون بما يحيط بهم من مواعظ وعبر، ويقر الجميع بصحة قول العابد، ويعرفون أنه العقل.

وأما المقامة الحادية والثلاثون فهي في التعازي، ذلك أن رجلا من أصحاب الراوي كان له ولد، فاختطفه الموت وهو طفل صغير، فحزن أبوه لفقده حزنا شديدا، لأنه كان يؤمل فيه خيرا كثيرا، وأخذ هذا الوالد يرثي ولده رثاءً محزنا، شعرا ونثرا، حتى ضعف جسمه، ووهن عظمه، ولم تفتقر له دمعة، ولم تؤثر فيه موعظة الواعظين، عندئذ أرسل الراوي إلى أبى التقويم، ليحضر فهو قادر على التأثير في نفس الوالد المصاب بولده، بما أوتي من بلاغة لسان، وسعة علم.

ولما حضر أبو التقويم أخذ مكانه في المجلس، وانطلق في وعظه للوالد، وتصبيره في مصيئته، واستدرج في حديثه متكلماً عن قيمة الصبر وفضله، وخاصة عند الصدمة الأولى، وقارن بين الصبر والحزع، فالحزع لا يرد الميت، ولا يبقى الحي، ولا يدع للمرء مثوبة، أما الصبر فإنه يحفظ الحي ويثبت الأجر، ويمنع شماتة الشامتين، ثم إن الموت قد كتب على الناس جميعاً، فهذا الولد سابق، وأبوه لاحق، فالأولى أن يستعد ليوم الرحيل، كي لا يخسر الدنيا والآخرة.

وقد بين أبو التقويم أن المصائب منطوية على نعم كثيرة، أهمها تنبيه الغافل وتحصيل الثواب للصابرين، واستخدم هذا الواعظ في موعظته شعراً مؤثراً، بالإضافة إلى النثر الجميل.

واستراح صاحب المصيبة بكلام أبي التقويم وطلب منه أن يزيد من حديثه المريح، فاستجاب الرجل، واستمر في كلامه مستعرضاً حوادث الأيام والليالي، التي نزلت بمن سبقوا من الأغنياء والملوك والأمم، فقد بادوا، حتى قصورهم خربت، وقبورهم اندرست رسومها، ثم ينتقل أبو التقويم إلى الحديث عن الواجب على العاقل، وهو أن يستفيد من عمره، في فعل الخير، واجتناب السوء، لأن جهنم نزاعة للشوى، فاتقاؤها ضرورة كبرى، والصبر من ما يدفع النار، ويدخل الجنة مع الأبرار.

ومرة أخرى يطلب الأب المصاب أن يرجع الشيخ غداً، ليعظه، فإن كلامه يسليه، فحضر الشيخ مبكراً، وجعل مجلسه مجلس

تذكير ، وكان مدار حديثه حول الموت، وقيمته الإيجابية في تصحيح مسار الأذكياء ، وأن التوبة واجبة ولا مجال للتسويف. وخرج أبو التقويم راجعا إلى داره، وقد عرض عليه الحاضرون مالا، فأبى أن يتقاضى أجرا على دعوته إلى الله .

والمقامة الرابعة والثلاثون في "وعظ السلطان"، ذلك أن بعض السلاطين كان مائلا للهو، والانشغال عن أمور المملكة، بيد أن طبعه كان ممكن الإصلاح، لهذا عندما سمع عن مذكر طيب استدعاه، وعقد له مجلسا، واجتمع الناس، وأخذ الشيخ يعظ السلطان، وكانت موعظته معتمدة على أن الملك خليفة عن الله في خلقه، أو كما يقول المؤلف: "الخلافة نيابة عن الله عزوجل في عبادته" ص ٢٦٨، وهي فكرة شاعت في العالم الإسلامي، وقيل: "إن السلطان ظل الله في الأرض" ولم يكن شئ من هذا في صدر الإسلام، إنما الخليفة رجل اختارته الأمة لحكمها، ولها عليه حق العدل والإخلاص، فإن زاغ عن الصواب، فلها كل الحق في تقويمه، وقد قال أبو بكر عندما تولى خلافة المسلمين: "إني وليت عليكم ولست بخيركم...، إذا زغت فقوموني" (٣).

وكان قصد ابن الجوزي من نصيح السلطان نشر العدل بين الناس، واستدل بعبارة أبي بكر "إذا زغت فقوموني" على أن الحاكم يحتاج إلى النصح، لأن التملك داعية للكبر والبطر، والظلم. وتكلم الواعظ في مجلسه عن وجوب مجاهدة الهوى، إذ هو الداعي إلى الظلم، والظلم أقبح شئ في الولاية، ومما يساعد

السلطان على نهج طريق العدل اعتباره بمن سلف من الحكام، ومن كان منهم عادلا، ومن كان ظالما، فمعرفة سير السابقين توسع مدارك الإنسان، وتجعله يصلح من سيرته، لا سيما إن كان في طبعه قبول للخير.

وفي المقامة الخامسة والثلاثين يصف ابن الجوزي واعظا، رآه في بلدة من البلدان واستمع إليه مع بعض الناس، وكان من أوصافه له أنه بليغ جدا، غزير المادة العلمية، حسن السمات، يأسر المستمعين إذا تكلم، حتى إنهم يذرفون دموعهم، ويتوب في مجلسه خلق كثير.

ويستخدم ابن الجوزي "أفعل التفضيل" كثيرا في وصفه لذلك الواعظ، فهو يقول مثلا: "هذا أخطب من سحبان، وأبلغ من قس، بلفظ أرق من النسيم، في معان أدق من الشعر...". وهي مبالغات يرمى بها إلى أنه بليغ فصيح جدا.

وتتوالى على هذا المذكر أسئلة المستمعين ومن خلال هذه الأسئلة يتضح أن بعض المستفتين مكارون، يكسبون من الحرام، ثم يحاولون تبرير ذلك، فينهرهم الشيخ، ويرهبهم بالعذاب في الآخرة، ويحببهم في الخير، كل ذلك بأسلوب شاعري ركيزته التخيل.

وأظرف سؤال في هذه المقامة هو: "ما السبب في أن محالسة الثقيل أثقل من الحمل الثقيل؟ فيجيب الشيخ جوابا لطيفا بقوله: "لأن الحمل يشارك البدن الروح في حمله، والرجل الثقيل تنفرد الروح وحدها بحمله" ص ٢٧٨.

وانتقل الواعظ في هذه المقامة إلى موضوع الحسد، فبين أنه لا يضير المحسود، وإنما يضير الحاسد نفسه، والناس لا يحسدون إلا إذا المكانة العالية، ومن جهة أخرى للحسد فائدة كبرى، إن الحاسد ينقب عن عيوب المحسود، لينشرها، فيحاول المحسود أن يتعد عنها بالجملة.

وتنتهي المقامة بعد الإجابة على أسئلة السائلين، ويمضى أبو التقويم إلى مسكنه ويسأل عنه الراوي، فيجيبه بعض الحاضرين أن اسمه أبو التقويم، وهو عالم كبير.

والمقامة التاسعة والثلاثون حدثت يوم الجمعة، و كان الراوي قد ركب دابة نجية مع صاحب له، وخرجا يضربان في البداء، وبلغ منهما الجوع والعطش، فمالا إلى بدوي فأطعمهما، وقدم لهما ماءً بارداً، فشربا ثم ذهبا إلى صلاة الجمعة، وهناك شاهدا خطيبا حسن الأسلوب، رقيق العبارة، له نغمة مؤثرة، جعلت الحاضرين يبكون في الجامع، من هذا عجب الراوي وصاحبه من طريقة هذا الواعظ.

ويسأل بعض الحاضرين ذلك الواعظ عن علة ثبات بعض الناس على ما هم عليه من الشر على الرغم من حضورهم مجالس الوعظ، فيجيب الشيخ بأن العلة غلبة الهوى عليهم، فحب المال مثلا قد أعماهم، وباب التوبة مفتوح لمن بادر إليه.

ويظهر فقر الواعظ في نهاية المقامة فيدعوه الراوي أن يطلب مالا، يستعين به لإصلاح شأنه، فيأبى ذلك مكتفيا بما لديه من قوت يومه، وهو لذلك عزيز النفس.

والمقامة الرابعة والأربعون في الوعظ أيضا، ولكن يدخل إليها المؤلف بطريقة لطيفة، ذلك أن بلده قد خلا من الوعاظ والعلماء، وهو محب لسماع ما يقولون، و فجأة وصله خبر وجود عالم غريب في المسجد، فذهب إليه ليستفيد منه، وهناك وجدته يعظ الناس ببلاغة عجيبة.

وكان مدار كلام الواعظ على ما يحدث يوم القيامة من أهوال تشيب الولدان، ثم دعا القوم إلى أن يتفكروا في شأنهم، وما هم إليه صائرون.

وكعادة ابن الجوزي في مقاماته الوعظية يأتي مسائل يسأل الشيخ، فيجيبه الشيخ بموعظة قد تطول، ولكنها في نطاق سؤاله، وفي هذه المقامة مقارنة بين نهاية الصالحين وهي السعادة، وآخره الطالحين وهي الخسران.

والمقامة الخامسة والأربعون تحتوي على رسالة من أبي التقويم إلى الراوي، فيها تحية وسلام وتهنئة بالعيد، وقد وصلت هذه الرسالة قبيل العيد، بينما كان المرسل إليه مشتاقا لرؤية المرسل، وقد رد الراوي على الرسالة ردا جميلا، به شوقه للحديث معه، والاجتماع به، وما إن يصل الخطاب لأبي التقويم حتى يأتي إلى صاحبه مسرعا.

وتتم السعادة باجتماع الصديقين. ويتسامر الاثنان بأطياب الأحاديث، حتى إنهما يأخذان في الأحاديث، وتدور أحاجيهما على المشترك اللفظي، أي يكون للكلمة معنيين، فإذا عرف أمكن حل

اللغز، كقوله في هذه المقامة: " أبصرت جارية في بطنها رجل، في فخذها جمل في ظهره قطب.

ثم يحل اللغز يقوله: الجارية السفينة، والفخذ القبيلة.

ص ٣٦٨.

وبعد ذلك يشكو الراوي ما به من عيب وهو أنه لا يعمل كما يقتضي الإيمان، ولا يدري السر في ذلك، فيعلق أبو التقويم بأن السبب في هذا الأمر هو طول الأمل، أو "الأمل الأهوج" كما يقول البطل بلسانه ص ٣٦٩، ومن هنا يندفع في الموعدة، ومحورها الحزم، فإن الحازم يقطع بأنه سيموت، فلا يضع من وقته شيئاً في الآمال الهوجاء، وإنما يعمل ويعمل، ويضرب أبو التقويم المثل للنفس بالطفل، إذ يجب تقويمه، فلو ترك يلعب فقط، فلن يتعلم شيئاً، وإذا لم يحمل على الجد فسيشب وهو لا يصلح لشيء، فالنفس كذلك يجب منعها من الهوى، وحملها على النشاط والعمل، فإن المكاسب لا تنال إلا بالتعب.

وأنهى أبو التقويم حديثه بذكر القبر وأهواله، وعن ضرورة الاستعداد لهذا الموقف كما هي حاله في مواعظه، وقد بنيت هذه المقامة على رسالة وخطبة، فجاءت فريدة بين مقاماته الوعظية كلها. وبهذا ينتهي هذا الغرض من أغراض مقامات ابن الجوزي، وهو الوعظ، وقد احتوت هذه المقامات على خطب أو مقاطع من الخطب، جاءت على لسان أبي التقويم، وهو يتكلم مع الناس أو يتحدث إلى المستمعين في المسجد.

أمراض النفس وعلاجها:

عرض ابن الجوزي للنفس وما يبتابها من أمراض، كالأهواء التي تحتاحها، والشهوات التي تحيط بها، والميل إلى النساء، والرغبة في الحرام وحب المال، والانكباب عليه، وقد وصف هذا الكاتب كل ذلك وصفا جيدا، مبينا أسبابه ومحددات نتائجه، وراسما طرق علاجه والنهية التي يؤول إليها المرء إذا لم يوفق في تأديب نفسه، تناول كل هذا في تعبير بديع، ولغة في معظمها جميلة.

والمقامات التي خصصها ابن الجوزي لهذا الموضوع هي المقامة السابعة، "في الحب وإيثار محبة الحق" ص ٥٣، والمقامة العاشرة "في محاكمة النفس وصاحبها إلى العقل" ص ٧٧، والمقامة الثالثة عشرة "في النهي عن النظرة" ص ١٠٤، والمقامة الرابعة عشرة "في مفارقة النفس للهوى" ص ١١١، والمقامة السادسة عشرة "في النفس" ص ١٢٨، والمقامة الخامسة والعشرون "طب القلوب" ص ٢٠٥، والمقامة الثامنة والعشرون "في ذم الهوى" ص ٢٢٤، والمقامة الثلاثون "في المحبين" ص ٢٣٧، والمقامة السادسة والثلاثون "في دواء العشق" ص ٢٨٤، والمقامة الثالثة والأربعون "في مخاطبة العقل للنفس" ص ٣٣٨، والمقامة السادسة والأربعون "في الزهد في المال" ص ٣٧٦، والمقامة التاسعة والأربعون "في ذم أبناء الدنيا" ص ٤٠٠.

والأمراض التي عرضها المؤلف في هذه المقامات تركزت في الشهوة والحرص والشره، والكبر والغضب، والأمل، فالشهوة في

الرجل تجعله يطلب المرأة، وفي المرأة تجعلها تسعى لنيل الرجل، وهي في حد ذاتها نعمة من الله بها على عباده، إذ بمقتضاها يحدث الزواج والتكاثر، وتتم عمارة الدنيا، ولو انتهت هذه الغريزة أو انتفت، لما تم ذلك، ولهذا شرع الله نظاما للنكاح لكي يتحقق الغرض من هذه الشهوة بصورة صحيحة، ولكن المشكلة تقع عندما تخرج الرغبة الجنسية عن طريقها المستقيم فتطلب الحرام، ولهذا الخروج دواع كثيرة، منها النظر إلى الأجنبية، وتعمد تكرار النظر، فتنقل صورة المرأة إلى القلب، ويهجم فيه الحب الحيواني، ثم يظل ينمو حتى يصير عشقا وولها، ثم يصيب العقل فيصبح جنونا، ويزداد الهوس والجنون بهذه المرأة إذا كان الرجل فارغ العقل، ليس له ما يشغله من طلب المجد، أو البحث العلمي، أو رضا الله، وكذلك المرأة إذا كانت مترفة واهنة العقل، لا يشغلها شيء من معالي الأمور، لا تفكر إلا في النكاح وأسبابه، فيحيط بها جنون العشق، من جراء نظرها إلى محرم، ولا يسمح هذا العشق، لأصحابه بالنوم ليلا، ولا بالراحة نهارا، ولا يكون حاضرا وهو في المجلس، لأنه في عالمه الخاص.

وكيف تعالج هذه الحالة؟

وضح المؤلف طرق العلاج توضيحا تاما، لكنه بثه في مجموع هذه المقامات، التي دارت حول أمراض النفس، وأول طريقة هي حب الله، فمن أصيب بحب مخلوق يمكنه أن يعالج نفسه إذا فكر تفكيراً سليماً في خالق هذا المخلوق وأن هذا المبدع

أولى بالحب والطاعة من هذا الكائن الفاني، وهو حب روحاني خالص ينير البصيرة، ويقوي الروح، ويشد العزم، على الضد تماما من عشق المخلوقات، ومتى تفكر المرء في الله فإنه سيتجنب الحرام، وعليه فستذهب أمراضه، وتعود إليه قوته وصحته وصحته.

والطريقة الثانية في الشفاء أن ينظر في المحبوب، فإن كان يمكن التزوج به، فيجب فعل ذلك، لأن هذه الغريزة إذا أشبعت هدأت، وقد تنطفئ شعلتها، ويعود العقل إلى صوابه، والنكاح أس الصلاح.

والثالثة إذا كان المحبوب لا يمكن التزوج به كأن يكون من الأقارب المحرمات، أو يكون متزوجا بآخر، أو يكون من نفس جنس العاشق، فيجب أن يتفكر المحب في عيوب هذا المحبوب في تلك الحالة، وأن يوسع رؤيته، إذ إن العاشق لا يرى إلا الجانب الجميل في المعشوق، وإذا فكر مليا تبين له الجانب القبيح فيه، فالمحبيب الجميل ذو الجسم الناعم، والخد الأسيل، والوجه الجميل، يحمل العذرة والسوائل القذرة، ومئاته كثيرة، فلم يهلك المحب نفسه فيمن هذه حالة؟ هذا التأمل العميق سبب من أسباب الشفاء.

والرابعة التدبر في العواقب، فإذا عرض للإنسان هاجس شهوة محرمة، تذكر عذاب الله في الآخرة، وأنه لا خير في لذة أعقبت ندما وألما، وكذلك ذل الدنيا والخزي والعار، وكثيرا ما ترتب القتل على هذه الشهوة، إذا أتاه المشتتهي فيكون خراب الديار، وذهاب الأرواح هدرا.

والخامسة أن تكون للمرء نفس أبية، أي أنه يفكر في كرامته وعزته، إذا خطر له خاطر شهوة محرمة، ولا يجوز لعاقل أن يذل نفسه بموافقة هواه، فالحرام يورث الذل، ويلقي في البلاء الطويل. والسادسة اليأس من المطلوب، فإن كان المعشوق لا سبيل إليه بطريق حلال، فليأس العاشق منه، ويأسه وفقدانه الأمل فيه تنقطع أسباب العشق، وتموت الشهوة.

إن الحياة جميلة وقيمة، ولا ينبغي أن يضيعها الإنسان في البحث عن شيء لا يكون، أو الجري وراء أمر فيه هلاكه وذله وتعاسته، وفي تاريخ العشاق المجانين عبرة.

يقول ابن الجوزي عن العشق وأثره: "العشق لهج بصورة يصير صاحبه في صورة، وهو من أغراض البطالين، وأمراض الفارغين، ينحل الأشباح النحول، فتحل الأرواح بالذبول، فالدمع هاطل، والرأي عاطل، والحسرات تتابع، والزفرات تتابع، والأنفاس لا تمتد، والوسواس يشتد، والعيون طول الليل ساهرة، والقلوب قد نسيت الآخرة، ومتى زاد أخرج إلى الجنون، وقد سمعت بعروة والمجنون"^(٤) ص ٢٨٧.

وأعظم شيء يقطع طريق الهوى غض البصر عن المحارم، من أجل ذلك أمر الله به عباده المؤمنين. وقد أفرد ابن الجوزي مؤلفاً كاملاً لهذا الموضوع، هو "ذم الهوى" بجانب هذه المجموعة من المقامات.

والمرض الثاني الذي يعترى النفس الإنسانية، هو الحرص^(٥)، وهو مركز في الطباع، وله قيمة سامية إذا لم يخرج عن حده، منها أنه يجعل الإنسان يحافظ على ما بين يديه، ولا يسرف فيه، ويسعى لتنميته وإصلاحه، ولذا يعد من أسباب عمارة الأرض.

بيد أنه يتضخم أحيانا فيتحول إلى داء عضال، يحمل صاحبه على الصراع القبيح من أجل جمع الحطام، ويعميه عن أن يفرق بين الحلال والحرام، بل أكثر من هذا يجعله يضيق على نفسه، وعلى من يعول، فيكرهه الجميع ويرجون هلاكه، بل ربما قتل نفسا من أجل المال.

وقد يحمل الشح أصحابه إلى الخروج من الملة، كما فعل ثعلبة، إذ منع الزكاة، وترك الصلاة، وانشغل بالماشية، فأعقبه الله نفاقا في قلبه، فهلك بحرصه.

وشفاء هذا الداء بالفكر، فمن ابتلي بهذا المرض فعليه أن يفكر في الموت، فإنه إذا مات لن يأخذ معه درهما ولا دينارا، ولا بيتا ولا زرا ولا ضرعا، وإنما سيرثه قوم آخرون، يتمتعون به، وهو يحمل وزره، إن كان حلالا لم يؤد حقه عوقب، وإن كان حراما عذب به، والورثة في لذة وسعة. وقصر العمر حين يفهمه الآدمي يدفعه إلى الكرم والإنفاق في سبيل الله، وما ينفقه في الخير هو الذي سينفعه، يوم لا ينفع مال ولا بنون، فالمال وسيلة للحياة الطيبة، وليس غاية.

وتأمل الإنسان في الحياة والأحياء يوسع إدراكه، فالكريم
 حسن السيرة، محبوب من الأقارب والجيران وغيرهم، والبخيل
 مذموم من الأبعد والأدنى، وفي الآخرة للكرام الجنة جزاء على
 إحسانهم، وللبخلاء النار، وبعس القرار، وضرب الكاتب أمثلة كثيرة
 من كرام الصحابة، فأبوبكر مثلاً أنفق كل ما يملك في سبيل الله،
 فطابت سيرته، ورضي الله عنه.

والشره داء يصيب النفس، وله صلة بالحرص وإن كان منصباً
 على الطعام والشراب، والمصابون به لا يشبعون ولا يقنعون، كأنهم
 يأكلون في سبعة أمعاء، ومن علاماتهم أنهم يأكلون، وعيونهم تمتد
 زائغة إلى ما حولهم، يريدون أن يأخذوه، أو أن يخطفوه.

أكل رجل مع أعرابي يوماً، وكان شرهاً، فقال له الأعرابي:
 "أنت تشدق، وتعلق، وتحقق" أي إنه يأكل بملء فيه، بشدقيه
 الاثنين، ويحمل في يده لقمة ليلقيها على عجل في فمه الذي هو
 كالطاحون، وينظر في القصعة، هل ما زال فيها كثير أو لا؟ منظر
 مضحك لشره فظيع.

وشفاء هذا المرض معرفة ما يورثه الامتلاء بالطعام والشراب،
 فهو يقتل الذكاء، ويصيب الأعضاء بالارتخاء، ويعقب الكسل
 والخمول، فتضيع الأغراض النبيلة، وتتوالى بالتخمة على الشره
 الأمراض الوبيلة، ويلجأ أطباء الأبدان إلى الأمر بالصيام لكثير من
 المرضى، أو التقليل من طعامهم وشرابهم، وقد أمرنا الله إذا أكلنا أو
 شربنا أن لا نسرف، والاعتدال في كل شيء محمود.

ومن أمراض النفس الغضب، وهو نار تشتعل في الدماغ، فتحرق الأعصاب، وتهلك البدن، وتمحق الفكر، فترى الغضبان كالثور الهائج، لا يدري شيئا، ولا يفهم نصيحة ناصح، وهو في حد ذاته مطلوب لغاية نبيلة كالدفاع عن الحق، والذود عن الحريم، وحفظ الوطن، ولكنه إذا زاد عن حده المطلوب، فأصبح المرء غضوبا. يثور لاتفه الأسباب، ويغضب من لا شيء ويصارع طمعا، ليأخذ ما لا حق له فيه، هذا هو المدموم منه، وتفطن الغضوب لحاله يساعده على الشفاء، فهو في حالة غضبه يفقد وعيه، وربما هلك في ثورة غضبه، وقد يقرر أمرا فيه خسارة له ولأهله، والبلوى أعظم من هذا لو كان هذا الرجل الغضوب يتولى أمرا مهما من أمور البلاد والعباد، فهو بغضبه يفسد كثيرا، من حيث يظن أنه يصلح، لأن ضعف عقله الناتج عن سرعة غضبه وشدته يجعله أحمق.

والحلم أكبر علاج لداء الغضب^(٦)، ولا يكون الإنسان حلما إلا إذا تحلم، فيضبط غضبه، ويكظم غيظه، ويعفو ويحسن، فإذا بلغ هذه الدرجة فهو السيد.

ومن أدواء النفس الكبير، وهو بشع جدا، ينتج من عدم معرفة المرء قدر نفسه، فهو يراها كبيرة، ويرى منزلته فوق منزلة الآخرين، فإذا مشى بان في مشيته الصلف، وإذا تكلم استخدم ضمير الجمع تعظيما لنفسه، وإذا عامل الناس تغطرس عليهم، ولا يستولى هذا السقم إلا على أصحاب النفوس الضعيفة، وأراذل الناس، وإذا تولى أمثال هؤلاء أذاقوا من تحتهم الذل، ومصدر شفائهم تنبيههم إلى أن

الناس إخوة، ولا ينبغي للأخ أن يتكبر على أخيه، وتعريفهم أنهم في الأصل من طين من حملاً مسنون، ثم من ماء مهين، والتدبير في الكون وآياته يعجل الشفاء من هذا الداء، فالإنسان في هذا الكون كائن ضعيف، وإنما يقوى بتواضعه لخالقه الذي تفرد وحده بالعظمة والكبرياء، و قراءة التاريخ تعيد المرء أيضاً إلى جادة الطريق، فكم من ملوك وصناديد كانوا جبابرة، دوخوا البلاد، ثم هلكوا ولم تبق منهم باقية، وحينما لا يراقب هذا المرض ويحاصر، فإنه يردي صاحبه، وكذلك يفني الأمم التي تصاب به، إذ إن أفرادها يتناحرون فيما بينهم، ويبغي بعضهم على بعض، أو تبغي هذه الأمة على أمم أخرى، وتستضعفها، ولكن سرعان ما تقوى الأمة المغلوبة بدافع حب الحياة، والدفاع عن النفس، فتنتصر على الأمة المتغطسة، وتسقطها، ولا يكون المتكبر إلا جاهلاً، سواء كان أمة أو فرداً.

والأمل أيضاً داء ينتاب النفوس فيمد لها مداً، ويلهيها ويعميها عن المصير المحتوم، وفي هذا التيه تنسى النفس واجباتها، وتلجأ إلى التسويف حتى في التوبة، والجانب الإيجابي في الأمل أنه يساعدنا على استمرار الحياة والتغلب على صعوباتها، والصبر على التعاسة، رغبة وانتظاراً لغد أفضل، غير أنه متى كثر واشتد فإنه يصير أحلاماً من أحلام اليقظة، يضيع الوقت ويبعد المريض عن الواقع، وكلما بدأ عملاً تركه قبل أن يكمله، أملاً في عمل آخر أحسن، حسبما خيل له ذلك الأمل الضائع، فلا هو حقق هذا ولا ذلك، والنتيجة ضياع العمر في أضغاث الآمال والأحلام، وعلاجه أن يتأمل المرء عمره، فهو يوم

قد فات ولن يعود، وغد لا يدري هل سيأتي وهو حي أم لا يأتي إلا وهو في عالم آخر، إذن لا يبقى له إلا اليوم الذي هو فيه، فليحسن استغلال هذا اليوم في الأعمال الصالحة، وليؤد واجبه أحسن أداء ممكن، وليحد من الآمال المجنحة.

والملاحظ أن ابن الجوزي قد ركز في وصف هذه الأمراض على الفرد، واعتمد في علاجها عليه أيضا، فالإنسان - في رأيه - يمكن أن يعالج نفسه، والوسيلة في ذلك ما سبق ذكره، وأساس العلاج حسن التفكير، وجودة التدبير، والعزم القوي في تناول الدواء. وقد رمى الكاتب إلى إصلاح المجتمع عن طريق إصلاح كل فرد فيه، فما المجتمع إلا مجموعة أفراد، تتعامل فيما بينها، فبداية المؤلف بالجزء، وانتهاءه بالكل منهج محمود.

البخل والكرم:

أفرد عبدالرحمن بن الجوزي لهذا الموضوع أربع مقامات من مقاماته الخمسين، هي المقامة الحادية عشرة "في ذم الأكل في قوة العز" ص ٨٧، والمقامة العشرون "في الصدقة" ص ١٦٤، والمقامة الحادية والعشرون "في ذم البخل" ص ١٧٣، والمقامة الثانية والثلاثون "في ذم البخل ومدح الكرم" ص ٢٥٢.

ومنذ العصر الجاهلي إلى الآن، والشعراء والأدباء يمدحون الكرم والكرماء، ويهجون البخل والبخلاء، فهو من الموضوعات الأدبية الشائعة، وكل له طريقة في تناوله، وقد أفرد له أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ كتابا كاملا بعنوان "البخلاء"، وكتب أبو

هلال العسكري كتابا عن الكرماء، وكلاهما مطبوع متداول^(٧).
وفي هذه المقامات التي خصصها أبو الفرج للبخل والكرم،
نجد صوراً للمجتمع العباسي في عصره، فقد أعطانا صورة دعوة
للطعام، ولما حضر المدعوون ليأكلوا، جاء فقير يرتدي ملابس
مرقعة، قد سيطر عليه الجوع، وحين رآه صاحب الدعوة، غضب
وصاح به زاجراً له، غير أن الفقير كان ذكياً حاد الذكاء فصيحاً، بليغ
العبرة، لم يقبل نهر الغني له، وإنما ناقشه في ما عمل من الطعام،
وأخبره أن الفقراء أحق بهذا الأكل من الأغنياء، وأن الصدقة
للمحتاجين وليست لمن عندهم المال، وأن الظهور بمظهر الكرم
سرعان ما ينكشف عند أول امتحان، وأن الكرم الحقيقي يتمثل في
إطعام الطعام للمعوزين أيام المسغبة، ولليتامي والأرامل، ولمن عضهم
الزمان بنابه، وقد كان الكرام الأوائل يصنعون هذا حتى إن "حاتم
الطائي" في الجاهلية كان يطعم كثيراً من هؤلاء المساكين، ولم يكن
يحب أن يأكل وحده، وكان إذا بقي معه لقيمات، يلقها للنمل
يأكلها، ويقول: إنهن جارات لنا.

وقد دارت الأيام وأصبح الأغنياء يأكلون ويشربون، ويصابون
بالتخمة، فإذا رأوا فقيراً بدا عليهم الضيق والحزن، كأنهم قد رأوا
الموت، مع أن له حقاً في هذا المال.

وهذه الظاهرة التي تحدث عنها ابن الجوزي موجودة في كل
عصر، وكل بلد، وهي في زماننا هذا كثيرة جداً، وهي تعد من
أمراض المجتمعات.

ووضح لنا الكاتب رؤية البخلاء للإنفاق، فهم يرون هذا الإنفاق إسرافاً، ويعدون الذي يطعم الطعام مسرفاً، بل أكثر من هذا يرون الذي يكرم نفسه، ولا يبخل عليها بمطعم أو مشرب أو ملبس، مسرفاً شديداً الإسراف، ويطلقون ألسنتهم بقذفه، طورا بالتلميح، وطورا آخر بالتصريح، وهم على وجه اليقين مرضى، يحتاجون إلى علاج.

وعلاج هؤلاء المرضى بداء البخل يكمن في تغيير نمط تفكيرهم، فلو أن فكرهم تحسن لعلموا أن المال مال الله، وهو الذي أغناهم وهو الذي أفقر سواهم، وقد جعل للفقر حقا في مال الغني، يجب أن يأخذه، وأن الكرم ليس إسرافاً، إنما هو وضع طبيعي، وتصرف معقول في هذا المال، وإن الإنسان عندما يتصدق فإن الله يربي الصدقات، ويحفظ المتصدق من الآفات المهلكة، والأمراض القاتلة، وتحويل الفكر يستدعي الإنفاق وهو العلاج العملي لمرض البخل، فالشحيح يحتاج إلى أن ييسط يده بالعطاء، ويدربها على ذلك حتى تلين.

ويرى ابن الجوزي أن البخل له أصل في الطبع، فالنفس مجبولة على الحرص، ولكن مع التدريب تصلح هذه الطبيعة، وتنق المال على الرغم من حبه، ويكون الانتصار على شح النفس عملاً مشكوراً من الله ومن الناس، فالصدقة تطفى غضب الرب، وتجعل الأخ يحنو على أخيه، أما الإمساك فيقطع الأرحام، وينشر البغضاء في المجتمع.

ومن الصور الطريفة التي صورها لنا هذا المؤلف صورة جماعة من المسلمين في المسجد، وواعظ يعظهم وهم يهتزون لكلامه، وبينما هو في حديثه إذ سأل سائل محتاج، فدعاهم الشيخ إلى مساعدته، فلم يستجب له أحد كأنهم حجارة، فغضب الواعظ، وهم بالانصراف، إلا أن بعضهم هدأ غضبه، وذهب وأحضر بعض الملابس لهذا السائل، وتبين أنها ملابس قديمة ممزقة، فهو يمثل أولئك القوم الذين ينفقون من الخبيث، ولا تمتد أيديهم إلى الإنفاق من الطيب الذي يحبونه، ويثور الشيخ مرة أخرى في الجامع، فيقوم بعض الناس بإحضار ملابس جيدة، وطعام طيب لهذا البائس.

ويبين ابن الجوزي أن العلماء في غالبهم فقراء، لأن العلم والمال لا يجتمعان، فانشغال العلماء بالبحث في مسائل العلم، لا يدع لهم وقتا لكسب المال، وإذا جاءهم بعض المال ينفقونه على طعامهم وشرابهم ولباسهم، ويشترون به الكتب التي يحتاجونها، فربما لا يكفي هذا القدر من المال حاجاتهم الأساسية، كذلك فإن المال لا بد له من تسمير، والتسمير يتطلب انقطاعا له، ولا ينسجم هذا مع طبيعة العلم التي تحتاج إلى عكوف، لذا كان الغالب على العلماء الفقر، وإذا وجد في جماعتهم غني، فهو الشاذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفقها.

وإنما المطلوب من هيئة العلماء هو العلم والتعليم، وإذا بخلوا بشيء من هذا العلم على طالب له، هو أهل لحمه، فهم أبخل من الباخلين بالمال، وعذابهم أشد، وقد أخذ الله عليهم الميثاق، أن

بينوا للناس، وأن لا يكتموا شيئاً، ووظيفتهم كوظيفة الرسل، هداية الحيارى، وإرشاد الضالين، وقد جعل ابن الجوزي بطله معلماً ومرشداً في كل مقاماته الخمسين.

العلم والعمل:

أفرد ابن الجوزي خمس مقامات للعلم والعمل، وهى المقامة الرابعة والعشرون "في شئ من اللغة" ص ١٩٨، والمقامة السابعة والعشرون، "في تفضيل العلم والعمل" ص ٢١٨.

والمقامة الثامنة والثلاثون "في الأمثال" ص ٣٠٣، والمقامة الحادية والأربعون "في علم القرآن" ص ٣٢٨، والمقامة الثامنة والأربعون "في ضرب الأمثال وحكم الحيوان" ص ٣٩٢.

وازن ابن الجوزي بين العلم والعمل، وفضل العلم والعلماء، و بين ماهية العلم، فهو عنده عمل القلوب، وإدراك الأشياء على ما هي عليه، ومعرفة الصواب من الخطأ، والمتحقق بالعلوم يخشى الله وحده، وهذه أعظم فائدة تجنى من العلم.

والعالم يضيئ العالم بعلمه، ويبدد ظلمات الشبه بشاقب رأيه، ومؤلفاته تبقى من بعده تحيي ذكره، وتنشر فضله، وتفيد الأجيال، جيلاً بعد جيل، فهي أولاده المخلدون، لذلك فهو حي وإن فني جسده منذ أزمان. ومنافع العالم تتعلأه إلى غيره، فإذا جمع العالم إلى علمه العمل به يكون مثلاً أعلى للمقتدين، ويربو مداده على دم الشهداء.

والعابد عمله مقتصر عليه، وهو يسترشد بأراء العلماء، وزهده

لا ينفع غيره، وإذا مات ومرت عليه سنون نسي ذكره، إلا أن يتجرد له عالم مؤرخ، فيسرد سيرته، ويحكي صفته.

ويركز أبو الفرج على النية، ويرى أنه إذا صدقت النية في العلم والعمل، فالعلم أفضل، والعابد الذي يتعبد دون أن يعرف سر المراد من عبادته، له أجر عند الله على قدر إخلاصه له، فإذا لم تصح النية فلا أجر له، كفعل المرائين، والعالم الذي يحصل العلم ولا يعمل بمقتضاه، لا يحني منه إلا الشقاء والتعاسة.

والسؤال المفيد غاية الفائدة في هذه المقامات الخاصة بالعلم هو: من الكامل علما وعملا؟ أجاب ابن الجوزي عن هذا السؤال بأن الكامل علما وعملا هو الذي تحقق من العلوم من بداية عمره، وداوم على الاستذكار، وأدمن الإطلاع في الكتب الصحاح، ورزقه الله التوفيق، فإنه يتفوق على كثير من الشيوخ الكبار، وإن كان في ريعان الشباب، فإن نور بصيرته يدرك ما لا يدركون.

ويرجع المؤلف من جهة أخرى محاولا حث المتلقين على العناية بالعلم والعمل، وإن كان قد فضّل العلم من قبل، يظهر ذلك من وصفه العلم والعمل بأنهما توأمان، وأمهما علو الهمة، فمن لا همة له، ولا عزم، ولا صبر، فلن يدرك شيئا أبدا، لا من العلم ولا من العمل، وهنا يظهر اتجاه ابن الجوزي الإصلاحى، وهو اتجاه يعتمد على العلم والعمل معا.

وتحصيل العلم عند ابن الجوزي لا يتم إلا بالاجتهاد والمثابرة، وفي رأيه أن الإنسان المؤهل لنيل العلم هو الفقير الصبور، لا الغني

ولا الغني، إذ إن الغبي قد ضعف عقله عن فهم مسائل العلم، وشغله بطنه عن التفكير السليم، والغني ألهاه الترف، وحلت عزيمته الرفاهية، فليس لديه من الصبر ما يعينه على الانكباب على كتاب يفهم غرضه، ويفك عويصه ويوضح مشكله، وإنما هو يريد كل شيء سهلا، كما يأتيه طعامه وشرابه سهلا، وهذا فيما يخص العلم محال، لأن طبيعته أبية، لا تستسلم إلا لقوي صبور، لا يشغله عن العلم شاغل، وإذا وجد في تاريخ العلم غني، فهو قد تجرد للعلم، وأخذ نفسه بالشدّة والجد، فصار من الطبقة التي رآها ابن الجوزي تحصل العلم، وهي طبقة الفقراء المجدين الأذكياء.

وخصص ابن الجوزي مقامة لمسائل لغوية، تناول فيها أسماء أصوات الحيوانات، مثل قولهم: رغاء البعير، وصهيل الفرس، وشحيج البغل، وثغاء الشاة وزقاة الديك، وعرض لقضية الإتياع، وذكر أمثلة كثيرة، كقوله: "يوم عك أك" أي شديد، "خضر نضر"، و "أشق أمق"، "عفريت نفریت"، وشرح أن الدقة في استعمال اللغة تؤخذ سماعا من الحفاظ وأهل اللغة، فالعرب مثلا لا تقول: مائدة إلا إذا كان عليها طعام، فإن لم يكن عليها طعام فهي خوان، ولا يقولون: كأس إلا إذا كان فيه خمر، وإلا فهي زجاجة، وذكر ابن الجوزي تغيير معنى الكلمة بتغير الحركة، مثل: الحمل والحمل، وتغير هذا المعنى بالإعجام، كالنضح والنضح، وربما لا يتغير معنى الكلمة بتغير موقع الحرف، ككلمة: جذب وجذب، فالمعنى واحد فيهما، وكذلك ذكر ابن الجوزي تعدد الأسماء لمسمى واحد، مثل ما ورد عن

السيف، فهو السيف والمهند والحسام والصارم، غير أن أكثر هذه الأسماء كان في أصله صفات، ثم انتقلت الصفة إلى الاسم بعد حذف الاسم، ولم يتعرض ابن الجوزي إلى هذا الأمر، لأنه لم يعلل لهذه الظاهرة، ولا للظواهر اللغوية التي ذكرها.

وفي المقامة الخاصة بالقرآن أورد المؤلف عدة مسائل، منها: هل في القرآن كلمات ليست عربية؟ وذكر الجواب عن هذه المسألة، وفتحوى جوابه أن في القرآن كلمات أجنبية الأصل، ولكن العرب استعملوها قبل الإسلام فهي عربية، ومن أمثلتها أسماء الأعلام مثل: إبراهيم، وإسماعيل، وأسماء الأشياء كالزنجبيل والسنندس والإستبرق، وقد أوردتها المؤلف مرتبة على حروف المعجم في هذه المقامة.

وشرح ابن الجوزي بعض وجوه الأداء في القرآن، مثل استعمال المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية، وكاستخدام الأسلوب الحقيقي، وكإيراد القرآن السؤال وجوابه، والاعتراض والرد عليه، مقرونا حيناً، ومفروقاً حيناً آخر، وتعرض لوجود الحذف والإثبات، وإسناد الفعل لواحد أو أكثر.

وفي هذه المقامة تكلم أيضاً عن عدد الأنبياء والمرسلين، وذكر أن عددهم مائة وأربعة وعشرون ألف نبي كما هو معروف لدى العامة، ولا أدري من أين استقى صاحبنا وغيره هذا الرقم، فليس هناك دليل على صحته لا في القرآن، ولا في الحديث الصحيح، ولم تمض أمة إلا وكان لها نذير، فكم عدد الأمم؟ الله وحده يعلم هذا.

وفي ترتيب العلوم حسب قيمتها، وضع ابن الجوزي الفقه في المرتبة الأولى، وصوره بأنه أمير، وجعل الحديث في المرتبة الثانية، ومثله بالوزير، و أنزل علوم اللغة في المرتبة الثالثة، وشبهها بكاتب الإنشاء في المملكة، ولعل الكاتب يقصد بالفقه الفقه الأكبر والأصغر، أى ما يتصل بمعرفة الله وصفاته، وما يجب له على عباده، وفقه الفروع، وهو الأصغر، ومسائله معروفة مما يختص بالعبادات والمعاملات، وهذا الفقه يعتمد على الكتاب والسنة العملية، وقد يقصد بالحديث الأخبار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وجعل علوم اللغة ذات منزلة عظيمة في الدولة، ومهمتها كمهمة المنشئ في المملكة، والعلوم الثلاثة المذكورة لا غنى عنها، ولم يتعرض ابن الجوزي لغيرها من العلوم، إلا أنه يفهم من تفضيله للعلم أنه يشجع على تعلم كل العلوم، وإنما وضع الفقه والحديث واللغة في قمة العلوم لأنها تساعد على عبادة الله بطريقة سليمة.

وفي المقامتين اللتين خصصهما المؤلف للأمثال ذكر مجموعة من الأمثال القيمة التي تساعد على حسن التربية، كقوله: "من سل سيف البغي، أغمد في رأسه"، وكقوله أيضا: "من ظلم يتيما ظلم أولاده"، ولكنه لم يذكر معنى المثل، ولا طريقة استخدامه، ولا فائدته، وإنما أورد الأمثال متتابعة، ثم ذكر أمثلة عن الحيوان، وهي من أحسن الأمثلة التي تعلم الحكمة وحسن الخلق.

وقد ضرب ابن الجوزي مثلا لمن شغله أهله وماله عن تصحيح أعماله بقوله: "مثله كمثل عامل السلطان شديد السهو، كلما

راح مال، مال على إنفاقه في اللهو، فرافق ثلاثة، خالص أحدهم
 بباطنه، وخالط الآخر بظاهره، ورمى الثالث بجنونه، فدعاه السلطان
 لمحاسبته، فحل الروع روعه، فأتى قرينه المصافي فقال له: هذا يوم
 احتياجي إليك، وتعويلي كله عليك: فقال له: إنما كنت لك رفيق
 الرخاء، لا صديق البلاء، لكنى أزودك ثوبين لا ينفعانك، فاشنى
 بالخيبة إلى الثاني وقال: الحقني، وأسرع، فقال: إنما أشيعك
 خطوات، ثم أرجع، فأقبل نحو الرفيق المهمل، وقال له قد أصبحت
 فقل لي: ما أفعل؟ فقال: لك عندي ما يدفع إفلاسك، ويرفع رأسك،
 إني كنت أتجر بيسير ما كنت تعطيني فصار الضعيف أضعافاً، فقال
 في نفسه: والله ما أدري علام آسى؟ على تفريطي في حق قرين
 الصدق، أم على تضييع الزمان مع قريني السوء؟ فالقرين الخالص
 المال، يواسي المرء عند موته بثوبين، والرفيق المخالط الأهل
 يشيعون إلى القبر، ثم يرجعون، والرفيق المهمل العمل الصالح"
 ص ٣٩٣.

هذا المثل يدل على أن الإنسان لا ينفعه إلا عمله الصالح
 الذي عمله، وإن كان قليلاً، أما المال والأهل فلا ينفعون عند
 الموت، وكل هذه الأمثلة منسجمة مع غرض ابن الجوزي من
 كتابته، وهو الإصلاح الأخلاقي، سواء كان على مستوى الفرد أو
 المجتمع.

العزلة والصدقة:

كتب ابن الجوزي مجموعة مقامات عن هذا الموضوع، هي

المقامة الثامنة "في السفر إلى الله عزوجل" ص ٦٤، والمقامة الخامسة عشرة "في الخائفين أو في الوحدة والعزلة" ص ١١٩، والمقامة التاسعة عشرة "في الخلوة" ص ١٥٨، والمقامة الثانية والعشرون "في حسن الصحبة والمداراة" ص ١٨٢، والمقامة السابعة والثلاثون "في العزلة" ص ٢٩٦، والمقامة الخمسون "في الأخ الصادق" ص ٤٠٩.

عندما يكون الإنسان عالما كبيرا وحساسا بالغ الحساسية يكون نقده للمجتمع عنيفا، وربما ضخم خياله عيوب المعاصرين له حتى إنه لينسى ما لهم من فضل، وقد يصرفه التأمل في أحوال الناس إلى العزلة، ويعلل لهذا الاعتزال بعدة علل، منها أن شر البشر قد عم، وأن إصلاحهم ليس في مقدوره، وأنه يريد أن ينجو بنفسه من شرورهم في الدنيا، وأن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة في الآخرة.

وتبرز ظاهرة العزلة في المجتمعات التي تتجه إلى الماديات بعنف، وتظهر كتابات تفضل الاعتزال على مخالطة الآخرين، وقد حدث هذا في الحضارة الإسلامية حينما بلغت ذروتها في العصر العباسي، ومال الناس إلى الترف، وانهمكوا في الشهوات، وعسر على العلماء الداعين إلى الخير رد قومهم إلى الجادة، اتجه ناس من المسلمين إلى النفور من المجتمع، وقطع العلاقات التي بينهم وبين معاصريهم، وكثرت جماعات الصوفية، وظهرت بينهم دعوات إلى الانقطاع إلى الله، وتفضيل التوحد والانفراد، حتى إنهم فضلوا العزوبة على الزواج، وقد عرض لموضوع العزلة أبو حامد الغزالي في كتابه: "إحياء علوم الدين" ومن قبله درس الموضوع نفسه أبو سليمان حمد

بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي البستي، في كتابه: "العزلة": وذكر أسبابها، وموقف العلماء منها، وأنهى مؤلفه بلزوم القصد في حالتي العزلة والخلطة.

ولما تناول ابن الجوزي هذا الموضوع أفاد من الكتب السابقة عليه. ككتاب الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨هـ، وهو الكتاب السابق الذكر، سأل أبو الفرج بطله هذا السؤال: ما الذي أوحش بينك وبين الناس؟ فأجاب بقوله: "خالفوني في طريقي، فصرت أستوحش من رفيقي"، فالاختلاف في المنهج والأسلوب والغاية هي الدواعي للعزلة عند هذا البطل، وحيث إن هذا البطل يريد أن ينصرف قلبه بكماله إلى المعارف، فإنه يخشى مخالطة الناس، لذلك يتجنبهم، فالحواس تنقل المعارف الحسية إلى القلب، وحين يعاشر الناس يسمع منهم كلاما سيئا، ويرى من أفعالهم أشياء قبيحة، وقد تمتد أيديهم إليه بالأذى، وهم ينافقون من يلقونه، فإذا انصرف وانصرفوا اغتابوه، وأكلوا لحمه، وسعوا في خراب بيته، طمعا منهم أن يستولوا على ما عنده، من أجل هذا كله آثر البطل الخلوة بعيدا عن الناس، وإذا رأى منهم أحدا بان عليه الضجر.

ويركز ابن الجوزي في مقامته التاسعة والثلاثين على نقد طوائف المجتمع الإسلامي في زمانه^(٨)، مبتدئا بالقراء، فبدلا من أن تكون قراءتهم للانتفاع بما في الذكر الحكيم، تراهم يتبعون القراءات الشاذة، ويغربون فيها، لكي يشار إليهم، ويقال عنهم: إنهم يعرفون قراءات كثيرة، وفي سلوكهم هذا ضرر كبير على العامة، فهم

يشوشون عليهم، ويضرونهم. وأما المحدثون فغرضهم جمع الأحاديث بأسانيدها، وهم يقصدون علو الإسناد، ولا يهتمون بالمتون ونقدها، ولا بما فيها من العظات والهداية، فهم يحملون أثقالا دون أن يستفيدوا منها، والفقهاء يركنون في استدلالهم إلى أحاديث لا يعرفون صحتها من ضعفها، وأحيانا يتركون الأحاديث الصحاح ويعتمدون على القياس، ويؤثرون الجدل، ثم يتحول الجدل إلى عنف وخصام، وقطع الأرحام، وبذلك تفوت غاية الفقه، وهى الإصلاح الاجتماعي وتقوية الروابط الأخوية، وتحسين خلق الفرد. والقضاة لا يتورعون عن قبول الرشوة، وهم لا يحكمون لمن له الحق، وإنما يميلون مع من يدفع لهم "البراطيل"، ويقبلون من أجل ذلك شهادة الكذابين والجهلة، والذين لا يدرون ما يقولون، وأما الوعاظ والمذكرون والقصاص فيذكرون الأخبار المكذوبة التي لا تصح في نقل ولا عقل، ويتصنعون الخشوع، وكل هذا يفسد الناس أكثر بكثير من ما يصلحهم، والتجار يتعاملون بالربا، ويغشون في الكيل والميزان، ويخدعون غيرهم، وأما الأمراء والسلاطين فهم أسوأ من كل هذا الطوائف المنحرفة.

هذه النظرة النقدية العنيفة للمجتمع، جعلت الراوي يسأل البطل عن المخرج من هذه الأزمة التي استولت على القاصي والداني، فأخبره أن الواجب عليه أن يبحث عن عالم عاقل متدين، فإن وجدته فليصحبه، وفي صحبته كفاية تامة، وإن لم يجد، فالمفروض عليه هو العزلة.

ولكن ابن الجوزي يعود فيحمل حملة شديدة على أولئك الذين يدعون إلى الانقطاع عن الناس كلهم، ويفضلون عيشة العزوبة على الزواج، فلا يشغلون أنفسهم بحق زوجة، ولا بحق عيال، ويرى ابن الجوزي أن هذا النمط من البعد عن الحياة والمجتمع وسوسة شيطان، وأن العزلة إنما هي اعتزال الظالمين، لا مفارقة أهل الدين، بل أكثر من ذلك، يعتقد ابن الجوزي، وهو الفقيه الحنبلي، أن الزواج سنة الأنبياء، ولا يدعه إلا من استولى عليه الشيطان، وأن إنجاب الإنسان ولدا يعبد الله خير من أداء السنن، إذ إن هذا المولود سيؤدى فرضا، ويكون امتدادا لحياة أبيه، والفرض مقدم على النفل، وأن بحث الأب عن طعام لأولاده خير من الانقطاع في المساجد للصلاة والصيام والعكوف، وفي أداء الزوج حق زوجته أجر عظيم، وربما نشأ عن النكاح طفل نجيب: مثل مالك بن أنس أو أبي حنيفة، أو الشافعي، أو أحمد بن حنبل يملأ الأرض علما، وينشر الهداية، ويرشد الضالين، فتتحقق عمارة الأرض وعبادة الله، ويدعو المؤلف إلى الإكثار من النسل، لكي يكثر عباد الله في الأرض.

وليس الزهد في نظر الكاتب بناء رباط، أو الانقطاع فيه، أو الابتعاد عن كسب الدنيا، مع الانتظار لإحسان الآخرين، هذا ذل وامتهان لكرامة الإنسان، وقد كان الصحابة يسعون في الأرض، ويشغلون في سبيل قوتهم وقوت أزواجهم وأولادهم، وكانوا يأنفون من السؤال، اشتغلوا بالتجارة والصناعة والرعي، وكان لكل نبي من الأنبياء حرفة، ولم يكن أحد منهم كلاً على غيره.

وحب الله لا يتحقق في ترك العمل، وإنما يتحقق بالعمل والعلم والإخلاص، وعلو المرتبة عند الله يتم مع التقوى، والعز والرفعة تصاحب التواضع، والرئاسة مع الإخلاص.

ولما تناول ابن الجوزي موضوع الصداقة ذكر سبب الصفاء، وهو تشاكل النفوس والطباع، وشرح أصول الصداقة، وهي صفاء الضمائر، وخلوص السرائر والوفاء، فإذا فتكت بهذه الأصول آفة، فإن الصداقة تنتفي أو تضعف شيئاً فشيئاً إلى أن تموت.

ولكن ظروف الاجتماع تفرض على الناس الاتصال والمعاملة، ولذلك فإن الاعتزال التام لا يتحقق مادام المرء حياً، فما العمل إذن؟ يبحث المؤلف الناس على كظم الغيظ، والعفو والتسامح، والمداراة، وقبول ظاهر الناس، وعدم البحث والتنقيب عن بواطنهم، والعامل يداري كل شخص بما يصلح له، حتى إنه يتعامل مع البهائم، ويستخدمها بحسن تدبيره، وكمال تفكيره، وأما الصديق الصدوق فهو لا يحتاج إلى مداراة كما يرى الكاتب.

بعض الفرائض والسنن:

تناول المؤلف الجهاد والحج والعمرة ورمضان والاستسقاء في مجموعة من مقاماته هي: المقامة الثانية عشرة "في الغزاة" ص ٩٧، والمقامة الثامنة عشرة "في ذكر الحج والعمرة" ص ١٤٤، والمقامة الثالثة والثلاثون "في هلال رمضان" ص ٢٦٠، والمقامة السابعة والأربعون "في الاستسقاء" ص ٣٨٤.

في المقامة الخاصة بالجهاد يظهر الراوي، وهو يمتطي فرسه، قاصدا ثغرا من ثغور المسلمين ليدافع العدو، ويصحبه في هذه الرحلة رجل آخر، حسن السميت، قوي العزيمة، وحين يصل الاثنان إلى الثغر تبدو أوائل معركة فلا يثبت الراوي الذي كان يطلب أجر الجهاد، وثواب الشهادة، وإنما يفرّ بعد أن امتلأ قلبه رعبا، ويثبت صاحبه، وينتصر ويرجع، فيلتقي مع الراوي، ويندم هذا الأخير على فراره من ساحة الوغى، ثم يسأل صديقه عما دار، فيصف له المعركة والكرّ والفرّ، وتطاير أعضاء المتقاتلين، وثبات المسلمين إلى أن انتصروا.

ثم يسأل الراوي البطل عن الحكمة في أن الشهداء لا يغسلون، فيبين له أنه إنما يغسل الوسخ لا الطيب، فريح الشهداء ريح مسك، وينتقل الحديث إلى أرواح الشهداء، فهي في دار السلام ترزق بغير حساب، فيشتد ندم هذا الفار ويعزم على العودة إلى الجهاد، إذ هو أفضل الزهد، وتنتهي المقامة بانصراف البطل والراوي، كل إلى سبيله.

وترتفع عواطف ابن الجوزي في مقامة الحج فيصف لنا ركب الحجيج أيام أن كان الحجاج يركبون الإبل، أو المطايا، كان الطريق يطول، فيقطعه القاصدون لبيت الله بحذاء جميل، ويغني بعضهم أغاني الحنين إلى الأهل والأحباب، والأغاني الدينية الصادقة النابعة من القلب، فتذرف العيون الدموع، وتنشط الجمال في السير، وكلما علت نجدا، ترنم الشادي بأبيات شعرية حلوة، وكلما هبط

الركب واديا زاد الترنم، وقد ذكر ابن الجوزي أشعارا رائعة في هذه المقامة، كان يغني بها بطله في سيره إلى الأراضى المباركة، وفي خروجه منها حتى عندما عاد إلى بلده، كان قلبه معلقا بديار الرسول، يرجو الإياب إليها مرة أخرى.

وفي رأي ابن الجوزي أنه ليس للقادر أن يقعد عن الحج، وهو رأى الدين، وأن الحج ليس مفارقة الأوطان، بل خلوص النية لله، وهجر الشر كله، واحترام الحقوق، وأداءها لأهلها، والاستمرار على هذا حتى لقاء الله.

ويتضح من هذا أن ابن الجوزي لا يقف عند القواعد الظاهرة، إنما يتعمق الفرائض، وينبه إلى الغاية الروحانية المتصلة بالباطن، ويوجه الأنظار إلى خلوص النية لله، وإلى أن تحسین المعاملة مقصد كريم من مقاصد العبادات.

ويبدو فهم أبي الفرج لمعنى الصيام في مقامته التي أفردها لرمضان، فالصيام عنده ليس الامتناع عن الجماع والطعام والشراب، وإنما هو صيام الجوارح عن الآثام، والحكمة في تشريع الصوم أن يذوق الغني في هذا الشهر ما يذوقه الفقير طول العام، وهو الجوع والحرمان، وكذلك شرع التعري عند الإحرام، ليذكر هؤلاء الأغنياء عري الفقراء، فتلين قلوبهم، وتسمح أيديهم بمساعدة هؤلاء المحتاجين.

وكان بطل المقامة، وهو ضيف الراوي في هذا الشهر الكريم يذاكره العلوم في النهار، فإذا جنهما الليل، دعا البطل الراوي إلى

القيام والتهجد، لأن هذا الشهر غنيمة ينبغي اغتنامها قبل أن تذهب.
ويبدو في هذه المقامة فرح المؤلف برمضان، فهو يوسف الزمان،
على حد تعبيره، ويظهر حزنه في آخر رمضان، لفراق هذا الشهر،
ولعدم علمه أقبلي صيامه أم لا، ولذلك عندما أتى العيد لم يكن البطل
فرحاً مثل كل الناس، وإنما كان حزينا على الرغم من أنه يرى أيامه
كلها عيداً، وشدة التأمل في انقضاء الزمان تصيب العالم بالاكتئاب
والحزن الدفين، والواجب التخفف منها، مع إصلاح المسار.

ويصف الكاتب حالة الجذب التي اجتاحت البلد الذي يقيم
به، فقد جف الزرع، وهلك الضرع، وصار الناس في بؤس مقيم،
فخرج شيخ صالح يدعو الناس إلى الاستغفار، فخرجوا معه يضحون
بالدعاء إلى الله أن يغيثهم، فصلى الشيخ بهم صلاة الاستسقاء،
وخطب خطبة، دعاهم فيها إلى الاستغفار والتوبة، وأعلمهم أن
المعاصي سبب الجذب والفقر، وأخلص الناس فيما أمرهم به الإمام،
فأمطرت السماء مدراراً، وانبتت الأرض، وحيي القوم، وكثر الخير
فدعاهم الشيخ إلى شكر المنعم، لأن الشكر يزيد الخير، واجتمع
أهل الناحية في المسجد، وحمدوا الله على نعمه، ثم سألوا الشيخ
عن الأولياء والصالحين فبين لهم أنهم المخلصون لله، الصالحة
قلوبهم وجوارحهم.

نقد الصوفية:

نقد أبو الفرج الصوفية في مقامة خصصها لهم هي المقامة

الأربعون، وعنوانها: "في صوفية الزمان" ص ٣١٩.

وقد انصب نقد المؤلف على هؤلاء القوم لأسباب أهمها انقطاعهم عن جماعة المسلمين واستسلامهم للكسل في بناء خاص بهم ، يدعى الرباط، وهم يرون أنهم بذلك متوكلون على الله، ثم ينتظرون أن ينفق عليهم الآخرون، ولا يتورعون أن يأكلوا من طعام الظلمة ، وحينما يقدمون على الطعام يأكلون أكل مجانيين، فأين الزهد إذن؟ ثم بعد أن يملأوا بطونهم، يغنون ويرقصون، ويستعملون أشعار الغزل، ويموهون على الناس أن هذا ذكر لله، وحب له.

وعشش الجهل في أدمغة هؤلاء البشر، حتى إنهم يتركون قراءة القرآن، ولا يعنون بسنة النبي، وهم يزعمون أن هذه ظواهر وقشور، وأنهم أصحاب الحقائق، وأرباب الإلهام، ويعولون على الوسوس التي تتابهم، وبينون آمالا كثيرة على أضغاث الأحلام التي تخيم عليهم في منامهم.

وهم يختلطون بالنساء، وربما نام بعضهم معهن، ويزعم أنها أخته في الله، ويصحبون الغلمان المرء في سيرهم وفي إقامتهم.

ويلبسون الخرق وإذا كان الثوب جديدا مزقوه، وهم يوهمون العوام بالبركات، ويتكلمون عن شيوخهم الذين يطيرون في الهواء، ويمشون على الماء، وهم أهل الخطوة، يكون أحدهم بالعراق وفي غمضة عين يكون في مكة، والعوام ليس لهم قدرة على نقد هذه الخرافات والترهات إلا من كان له نور بصيرة.

بيد أن ابن الجوزي يحب معروف الكرخي، وإبراهيم بن أدهم، وأمثالهم من الرجال الصادقين الذين كانوا يعملون بالكتاب

والسنة، ولا يعملون شيئاً من تلك الأعمال الشنيعة التي يعملها مدعوا التصوف في عصر المؤلف.

وتاريخ الإسلام يشهد بأن الصادقين من أصحاب الطريق كان لهم فضل في نشر الإسلام، لاسيما في أفريقيا، وهذا ما لم ينبه عليه ابن الجوزي، وكان هؤلاء علماء يحفظون الكتاب والسنة، ويعرفون الفقه معرفة جيدة، ولم يكونوا يهتمون بالمظاهر، وكانوا يشتغلون، ويأكلون من عمل أيديهم، ولم يكونوا يقبلون شيئاً، وكانوا يقاتلون الكفار والمعتدين، وفي عصر الحروب الصليبية، خرج أبو الحسن الشاذلي يحث الناس على الجهاد، وكان قد عمي، وليس عليه حرج، ولكنه لم يتقاعس عن واجب الجهاد، عندما هجم الصليبيون على شمال مصر.

ولم يكن أولئك الشيوخ الأفاضل يخرجون عما فرضه الله وسنه رسوله، ولم يكونوا يعنون بالمصطلحات الصوفية، وإنما كانوا يقولون: إنما نحن أهل الطريق، أى طريق الله ورسوله، ولم يكونوا يفرقون بين ظاهر الشرع وباطنه، ولذلك يجب التفرقة بين هؤلاء الصادقين وأولئك الكذابين، وعلى الجملة فإنه في كل جماعة تجد الصادق، وتجد المنافق، وحساب الجميع على الله، وهو الذي لا تخفى عليه خافية.

ذم إبليس:

كتب ابن الجوزي المقامة التاسعة والعشرين في "ذم إبليس" ص ٢٣١، وكان القرآن الكريم المصدر الأول الذي استمد منه

الكاتب تلك الصفات التي وصف بها إبليس، فهو يتصف بالكبر، إذ لم يسجد لآدم طاعة لأمر الله، وهو أحق إذ يشتغل قوادا لبني آدم، يزين لهم المعاصي والشهوات، ثم يقود من أطاعه إليها، وهو جاهل طائش، لأنه طلب من ربه أن يؤجله، لا لأن يتوب، وإنما ليضل الناس، وهو ضعيف لا يغتر به إلا الغر، وهو يتكئ الجدل، والجدل عمل الفارغين، وعندما يرى قوة الإنسان يلجأ إلى المدح، ليغر المرء ثم يسحبه من هذا الجانب، لكنه لا يقدر على عباد الله الذين أخلصوا دينهم لله، وهو يثير الخلاف بين ضعفاء العقول ولا يستطيع ذلك بين الأذكياء.

من أجل هذا انهزم أمام بطل المقامة، ولم يقدر في محاورته أن يجتذبه إلى ناحيته، فولى الأدبار يائسا من هذا لبطل الفطن.

وقد سبق بديع الزمان ابن الجوزي، وكتب مقامة عن إبليس، عنوانها: "المقامة الإبلية"،^(٩) ولكن إبليس الهمداني شاعر، أو مدح للشعر، وقد ادعى شعرا لجرير، وقال: إنه هو الذي أملى عليه بعض قصائده، وكنيته الشيخ أبو مرة، فهل تأثر ابن الجوزي بهذه المقامة؟ لا لم يتأثر ابن الجوزي بمقامة بديع الزمان، فموضوع البديع يختلف عن موضوع أبي الفرج، وطريقة الأداء تختلف، وأيضا الغرض، وإنما تأثر كاتبنا بآيات القرآن التي بينت لنا أخلاق الشيطان وكبره، ومعاملته لبني آدم، وفتنته لهم، وضعف كيده، فغرض ابن الجوزي ديني، وغرض بديع الزمان أدبي، وبذلك يكون وجه التشابه فقط أن كلا منهما كتب مقامة عن إبليس.

وصف الربيع:

تناول ابن الجوزي الربيع في مقامة واحدة عنوانها: "في الربيع" ص ١٩٠، وفيها وصف الطبيعة وصفا جميلا، وصف الماء الجاري والغيث والأرض المخضرة، والزهر المتنوع، والورد الجميل، والحيوية التي تملأ الجو، فالطيور تغرد، والناس يمرحون. وبينما يتمتع الراوي بالمنظر الخلاب هو وبعض أصحابه، إذا برجل هو بطل المقامة مفكر، يرقبهم ويدعهم مدة، ثم يناديهم، ويلفت نظرهم إلى قدرة الخالق المنبوثة في كل شيء، وأن عليهم أن يفكروا في هذه الأرض، فبينما كانت قاحلة ميتة، نزل عليها الغيث، فأنبتت واحضرت، ثم أزهرت وأينعت، وفي هذا دليل على البعث والنشور، ولكن الناس مشغولون عن الفكر الصحيح، فلا تؤثر فيهم موعظة، والمفروض أن تكون الموعظة في تأثيرها في القلوب كالقطر في فعله بالأرض، تحيا به بعد موتها.

وفي هذه المقامة مفاضلة بين الربيع والخريف، وبالطبع فإن المؤلف يفضل الربيع ويراه شباب الزمان، وأما الخريف فهو شيخوخته.

وفيها أيضا منافرة بين الورد والنرجس، والكاتب ينصر الورد، لأنه لا يفقد رائحته أبدا، حتى بعد جفافه.

وفي الأدب العربي دار موضوع وصف الربيع كثيرا في نثر الأدباء وأشعار الشعراء، منها أبيات البحري المشهورة، وللصنوبري أشعار كثيرة في الطبيعة، بأزهارها وورودها^(١٠).

وظاهر هذه المقامة أدبي، ولكن غرضها ديني، وهو التفكير والتأمل في مخلوقات الله، حتى يوحد الإنسان ربه، ويخلص له في عبادته.

ولكن ابن الجوزي استعمل كلمة "الصانع" ص ١٩٤ في هذه المقامة واستخدمها في مقامات أخرى وهو يدل بها على الخالق البارئ، وهو استخدام مناف للكتاب والسنة، إذ إنه يجب أن ندعو الله بأسمائه الحسنی، قال الله في كتابه العزيز: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِيَّ بِأَسْمَائِهِ﴾^(١)، وقد تأثر ابن الجوزي باصطلاح الفلاسفة، لكثرة اطلاعه وسعة ثقافته.

الهزل:

مقامات ابن الجوزي جد كلها إلا جزءاً من المقامة الثانية والأربعين، وعنوانها: "في هزل وجد" ص ٣٣٨، والهزل الذي أورده المؤلف في هذه المقامة ليس من قبيل المجون، وإنما هو مجموعة من الطرائف عن الحمقى والمغفلين، بعضه عن يزيد بن ثروان، ذلك الذي جعل في عنقه قلادة من ودع وخزف، ولما سئل عن سبب وضعه هذه القلادة في عنقه قال: "أخشى أن أضيع مني ففعلت ذلك"، ص ٣٤٠، فحولت القلادة ليلاً إلى أخيه، فلما أصبح، قال لأخيه: "يا أخي أنت أنا، وأنا أنت؟" ص ٣٤٠.

وبعض هذه الحكايات المضحكة عن عجل بن لجيم، وعن أبي أسيد: وعن عثمان بن أبي شيبة، وعن سيمويه القاضي، وعن أبي كعب القاص وعن غيرهم، وهي كلها حكايات نابغة من الغفلة التي

تعتري بعض الناس، فتصدر منهم أفعال وعبارات مضحكة، أو هي نابعة من ضعف العقل والنسيان.

والملاحظ أن هذه الحكايات قد ذكرها الكاتب في كتاب آخر له، عنوانه: "أخبار الحمقى والمغفلين" (١٢).

ولم يكن للشيخ أبي الفرج في الهزل مثل ما لبديع الزمان، لغلبة الجد عليه في حياته كلها، ولسيطرة العقل والتأمل، ولكثرة تفكيره في الموت.

وهنا تنتهي دراسة أغراض هذه المقامات الجادة، وموضوعاتها كلها، ويبقى سؤال عن كيفية تأليف المقامات الجوزية، وعن أسلوبها وعن قيمتها.

تأليف المقامات الجوزية:

أبو الفرج بن الجوزي رجل عالم أديب، واسع الاطلاع، كان يبغى نشر العلم وتقويم الأخلاق، فاستعمل طرقا متعددة للوصول إلى هدفه، وتحقيق غرضه، من هذه الطرق بث أفكاره في مقاماته، لكي يقرأها الناس، وقد كان ميلهم للمقامات عامة آنئذ شديدا، فكان يتناول الفكرة، ويبني عليهما مقامة، وهذه الفكرة الرئيسية يتبعها أفكار جزئية أخرى، أو تتولد عنها.

وتخيل بطلا: العقل، وكناه بأبي التقويم، وهي كنية تدل على الإصلاح الفردي، والاجتماعي العام، وكان المؤلف نفسه هو الراوي الذي يقص ما يقع من أبي التقويم من أفعال وأقوال، أو يخبر بالأخبار الصادرة عنه.

وتبدأ المقامة بمشكلة في أكثر الأحيان، تجعل الراوي يضيق صدرا فيبحث عن مخرج ، هذا المخرج يكون بطرق متعددة، منها أن يخرج الراوي إلى المسجد الجامع، وفيه يلتقي بأبي التقويم، وعمل أبي التقويم في الجامع الوعظ الإرشاد، ومنها أن يخرج إلى الفلاة سائحا، وقد يقابله رجل مثله ضاق به الحال، فيصحبه، ثم يلتقيان مع أبي التقويم المعتزل في البداء، ويجري بينهم ما يجري من الأحاديث التي يحكيها الراوي فيما بعد عن طريق استدعاء الماضي، ومنها أن يجد الراوي أهل بلدة قد خرجوا كلهم إلى خارج البلد، فيسأل، فيقال له: إن هاهنا عالما كبيرا، جاء يذكر الناس، ولما لم يحتمل الجامع كل أهل البلد، خرجوا إلى المصلى في الصحراء، حيث يصلون العيد، ليتسنى لهم جميعا الاجتماع بالشيخ والإفادة منه، وليسعدوا برؤيته الكريمة، فيذهب الراوي معهم، ويسمع ما يقول الواعظ، ثم يقصه بطريقته القصصية الجذابة، ومنها أن يركب في سفينة تسير بهم في النهر، ثم تنكسر السفينة، ولكن يكتب لهم النجاة، فيخرج سالما إلى جزيرة نائية، لا يدري فيها شيئا، ثم يصفها لنا، وهناك يقابل أبا التقويم، ويحفظ عنه ما يقول، وحين ينتهي اللقاء، يعود إلى موطنه، والمرشد له هو حبيبه وصديقه أبو التقويم.

وخلال هذا المدخل للمقامة تظهر المشكلة، وتبدو الفكرة التي يطرحها المؤلف، ويتتبعها بالوصف والتحليل والتعليل، ثم يبين الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يسلكه البشر، وعادة ما يكون هذا في نهاية المقامة، كأنه نتيجة طبيعة للمقدمات السابقة، وكثيرا ما

يطرح القضية في هيئة سؤال، يجيب عنه أبو التقويم جوابا شافيا، قد يكون طويلا، وربما يكون مختصرا جدا.

والحوار غالب على هذه المقامات، والسؤال والجواب، لأنها مقامات فكرية، وأسئلة السائلين تدل على قوة عقولهم، أو ضعفها، كذلك فإنها توحى بإخلاص السائل، أو تكلفه البغيض، لعدم خلوص نيته، من أجل هذا تأتي إجابة الشيخ موائمة لنوع السؤال، ومدى الإخلاص فيه، فبعضها إجابات هادئة شافية، وبعضها ردود حادة عنيفة، وقد يصف السؤال بالبرود.

وقد بنى المؤلف المقامة الخاصة بدم إبليس على الحوار، لذلك يقول كثيرا: قال إبليس... "وقلت.. فلو حذفنا" قال وقلت" ووضعنا الشيخ والشيطان أمام كل قول يخص أحدهما لكان حوارا مسرحيا من حوار المسرح الذهني، الذي يعتمد على الأفكار والكلمات أكثر من اعتماده على الفعل.

واستخدم الشيخ ابن الجوزي النثر والشعر في كتابة المقامة، هي السنة التي سنّها بديع الزمان، وسار عليها كتاب هذا الفن الأدبي، والأشعار التي ذكرها المؤلف منسجمة مع النثر، ومتفقة مع موضوع المقامة، ومتحدة مع أفكارها، وهي أشعار من تأليف المؤلف، وقد كان شاعرا، كما ذكر كل الذين ترجموا له في كتب الطبقات، ولكن ديوان شعره لم يصل إلينا، غير أنه اقتبس أشعارا أخرى لشعراء آخرين من العصور السابقة عليه، وبثها في مقاماته، ولم يشر إلى قائلها، بعض هذه الأشعار لمتمم بن نويرة في رثاء أخيه

مالك، وبعضها للسموأل بن عاديا، منها قوله:

تعيّرنا أنا قليل عديدا فقلت لها: إن الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل^(١٣)

وبعضها لحميد بن ثور الهلالي، وبعضها للشعراء العشاق، كجميل بثينة ومجنون ليلى، وعروة بن حزام والمرقش، وبعض هذا الشعر للمتنبى، ويدرك هذا كله قارئ المقامات الجوزية. إن كان له ثقافة عربية واسعة.

وأسلوب الكاتب في هذه المقامات أسلوب مسجوع، يعتمد على التقيد بحرف الروي في أواخر الجمل. مما يجعل موسيقا الكلام واضحة جدا، وإن كانت رتيبة، ولكن رتابتها لا تترك للقارئ مجالا للملل، لأن الأفكار تجتذبه ناحيتها كثيرا. وهذا الأسلوب المقيد هو الذي جرى عليه مؤلفو المقامات في عصور الأدب العربي كلها حتى العصر الحديث، ولذلك صار هذا الأسلوب من خصائص هذا الفن الأدبي، لدرجة أن يقال: أسلوب المقامات، ولم تكن الكتابة المسجوعة ديدن الرجل في كل كتاباته، فإنه قد كتب أكثر مؤلفاته بأسلوب مطلق سهل^(١٤)، على حين كان كثير من كتاب عصره يكتبون كل رسائلهم ومؤلفاتهم بطريقة مسجوعة.

والبديع بأنواعه كثر في مقامات ابن الجوزي، من جناس وطباق ومقابلة، وهو في غالبه خفيف، خفف من حدته سيطرة الأفكار، ولكنه يثقل عندما يجتمع مع الألفاظ الحوشية، فيستغلق المعنى ويستحيل الأسلوب إلى الغاز.

وخيال الرجل في هذه المجموعة من المقامات يرتفع أحيانا كثيرة، حتى إنه لينتج تراكيب جميلة جدا، من حيث مبنائها ومعناها، فتؤثر تلك الحمل في القارئ أو المتلقى تأثيرا عميقا، منها قوله مثلا: "اللذة خناق من غسل" ص ٥٩، "الهوى مستعجل لا يراقب"، ص ٧٥، "التويخ جدري في وجه الحلم"، ص ٩٠، "ما رحل أحد يطلب بلاد الآمال إلامات في السفر" ص ٢٠٦، "من قبل فم اللذة عضته أسنان الندامة، ص ٢٠٧، "إذا ترعرع الولد تززع الوالد" ص ٣٠٨، "مركب الفخر وطيب تحت الجهلة، وبساط الدعة لذيد عند العجزة، والدعاوي في السهل، والأعمال في الحزون" ص ٣١٥، هذه أمثلة فقط، وفي المقامات كثير من الصور الجميلة، المشحونة بالمعاني، وكان للشيخ ابن الجوزي باع فيها عظيم، مما يدل على امتلاكه لخاصية البيان، وعلى قوة الجانب الأدبي لديه، فهو عالم فقيه، لكن لكلامه حلاوة، لا نجد لها عند كثير من الفقهاء، إذ الغالب عليهم الجفاف، ولا نراها عند الأدباء المنقطعين للأدب، لأن أفكارهم ليست عميقة، ولأن كثيرا منهم ينقطع عن القراءة، ويجتر أفكاره، حتى تنفذ، فيكون كالنهر الذي جفت منابعه، ولكن ابن الجوزي كان نهما في القراءة، تدل مصادره على سعة اطلاعه.

وكما اقتبس ابن الجوزي أشعارا، وبشها في مقاماته، وقطعها عن سياقها، ووضعها في سياقها، وجردتها من غرضها الأول، وحملها

غرضه هو، ومزجها بأسلوبه، فأدت واجبها، استعمل أيضا الأمثال العربية، فبث كثيرا منها في مقاماته، ثم أفرد لها بعض المقامات، كما في مقامته الثامنة والثلاثين، "في الأمثال" ص ٣٠٣، وكما في مقامته الثامنة والأربعين "في ضرب الأمثال وحكم الحيوان" ص ٣٩٢.

وكان اختيار الشيخ أبي الفرج من هذه الأمثال موفقا، ومتفقا مع موضوعه الذي يتحدث عنه، ومنسجما مع قصده العام من كل مقاماته، وهو الإصلاح، ومن هذه الأمثلة قوله: "الصبر قرين الظفر" ص ٣٠٦، "من سل سيف البغي أغمد في رأسه" ص ٣٠٨، "من صعّد بظلم نزل بعدل" ص ٣٠٨، "التفريط أخو الندم" ص ٣٠٩، "الكسل ابن عم الحسرة" ص ٣٠٩، "الطمع مركب التلف" ص ٣٠٩، وهي في جملتها أمثلة تصويرية، تحمل القارئ على التدبر في معانيها مليا، وهي تؤثر فيه عاطفيا، وقد تغير من سلوكه، إذا كان مرهف الحس يستجيب لخير ما يقرأ.

ولغة الشيخ في هذه المقامات لغة أدبية جميلة، سهلة الألفاظ، دقيقة الأداء، جيدة السبك، إلا أنه كان يستعمل غرائب المفردات أحيانا، وكثير منها ميت مقبور في بطون المعاجم، فيلاحظ القارئ أن هذه الكلمات الحوشية في بعض جمل ابن الجوزي كالعقبات في الطريق السهل المنبسط، يود السائر فيه لو خلا منها

من الأمثلة الدالة على ذلك قوله في المقامة الثانية عشرة: "فلم يتميز
الهلقام السرعرع، من القلهزم الخرنغرة، وإذا الغضنفر والدمكمك
والقنفخر العلندي، والضبابب الدلامن والصنع العشوذن، كلهم في
مقام أجغيل" ص ٩٨.

ومما يؤخذ أيضا على لغة المقامات الجوزية استعمال المؤلف
لكلمات كثيرة ذات صيغة واحدة في جملة واحدة، كقوله: "أكلة
شربة جثمة طلعة حولة حطمة خرجة ولجة خدعة، خذلة سهرة في
الهوى سخرة ضجعة ضحكة قعدة عن الخير، لعبة همزة للناس، لمزة
هزأة هذرة هتكة نومة وكلة تكلة..." ص ٧٩. فهذه الكلمات
المتلاحقة كلها على وزن "فعله"، وهي صيغة مبالغة، فهل القارئ
أمام متن صرفي، يتعلم منه وزن فعلة، وما أتى عن العرب من مفردات
على هذا الوزن؟ أو أنه حيال مقامة لها فكرة مفيدة؟ ليت ابن
الجوزي أحلى مقاماته من هذه المآخذ، لكن هل ينفع ليت شيئا؟ لقد
استولى النقص على جملة البشر.

قيمة المقامات الجوزية:

وتبقى للمقامات الجوزية قيمتها العظيمة في نبل قصدها، وهو
إصلاح الفرد والمجتمع، وحسن رصفها، وتحليق خيالها، وعمق
التأمل في النفس وفي الحياة، وهي أمور توسع مدارك الإنسان
المتلقي.

. وهي حلقة من حلقات هذا النوع الأدبي لا تكمل معرفته إلا بدراسة كل حلقاته، وهي تطلعننا على كثير من أحوال المجتمع العباسي آنئذ، وتساعد الباحث في التاريخ الاجتماعي، وتمده بمادة ثرية عن طبقات الشعب، وطريقة التعامل السائدة بين الناس، في ذلك العصر، فمثلا عندما يتحدث الكاتب عن الربا المنتشر بين قومه، وعن معاناة الفقراء وعن استهتار كثير من الأفراد، وعن الخمر وإتلافها للعقول، وعن الفهم الخاطيء للدين الذي يظهر على وجه الخصوص في الطبقات الدنيا، لا سيما لدى النساء، وعن انحراف بعض الصوفية والفقهاء والقراء والمحدثين، وغير ذلك، يعين هذا كله الباحث في الاجتماع البشري في ذلك الزمان، ويمده بفيض من المعلومات غزير، ومن هذه الناحية تعد المقامات مرآة تعكس صور المجتمع إلى حد ما، كذلك فإن لها قيمة كبيرة للباحثين في النفس الإنسانية، وما يعترئها من الوهن والانحراف، وطرق العلاج.

وعلى وجه العموم فإن المقامات كنز مفيد يحتاج المنقب عنه إلى صبر، ليستخرج جواهره النفيسة، ويتطلب منه أن يرفض الأفكار السائدة، من أنه أدب متكلف، وأنه سبب الانحطاط، إلى غير ذلك من الأحكام الجائرة، والعبارات التي لا معنى لها.

هوامش

- ١- ترجمة ابن الجوزي في هذه الكتب:
* وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، ١٤٠/٣ - ١٤٢، منشورات الشريف الرضي، قم ١٣٠٤هـ.
* ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب، تحقيق الفقي، طبعة مصر، ٤٩٩/١.
* الأعلام، خير الدين الزركلي، الطبعة الثالثة، ٨٩/٤ - ٩٠، وفيه أن ابن الجوزي ولد سنة ٥٠٨هـ وتوفي سنة ٥٩٧هـ، وفيه إحالات إلى مراجع ومصادر أخرى لمن أراد المزيد.
- ٢- ذم الهوى، عبدالرحمن ابن الجوزي، طبعة القاهرة.
كتاب الأذكياء، ابن الجوزي تحقيق د. محمد مرسي، القاهرة.
أخبار الحمقى والمغفلين، ابن الجوزي، طبعة بيروت، ١٩٨٣م.
- ٣- هناك رواية أخرى هي: "...، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني"، وغيرها أيضا، والمعنى متقارب، انظر خطبة أبي بكر هذه في كتاب "جمهرة خطب العرب"، أحمد زكي صفوت، القاهرة، ١٨٠/١. وأيضا: "دراسات في تاريخ الأدب (صدر الإسلام)"، د. شعبان محمد مرسي، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص ١٤.
- ٤- توسع ابن الجوزي في موضوع العشق وأسبابه وأضراره وطرق علاجه في كتابه "ذم الهوى"، وقد أفاد كثيرا من كتاب ابن السراج: "مصارع العشاق"، صدر هذا الكتاب في مصر.
- ٥- كتب العرب القدماء في موضوع البخل كثيرا، ولاسيما أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، فقد ألف كتاب "البخلاء"، وطبع مرارا في القاهرة وبيروت.
- ٦- الحلم في الأدب العربي، د. شعبان محمد مرسي، مجلة الدراسات الإسلامية، ع ٢٤، م ٣٢، شوال - ذوالحجة ١٤١٦هـ/إبريل - يونيو ١٩٩٦م، ص ٥٩-١٢٢. مجمع البحوث الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، باكستان.

- ٧- كذلك ألف أبو بكر أحمد بن أبي الحسن علي بن ثابت الخطيب البغدادي كتاباً بعنوان: "البخلاء"، حققه أحمد مطلوب، وأحمد ناجي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤م.
- ٨- خصص ابن الجوزي لنقد أهل العلم كتابه: "تلييس إبليس"، طبع في مكتبة المتنبي بالقاهرة، بدون تاريخ، وله طبعات أخرى كثيرة.
- ٩- شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد محيي الدين عبدالحميد، طبعة مصر.
- ١٠- ديوان الصنوبري، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- ١١- سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
- ١٢- أخبار الحمقى والمغفلين، دار الآفاق، بيروت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- ١٣- ديوان السموأل، دار صادر، بيروت، ١٣٨٤ / ١٩٦٤م، ص ٩٠، وهو مطبوع مع ديوان عروة بن الورد.
- ١٤- انظر مثلاً كتابه: "صيد الخاطر"، تحقيق الشيخ محمد الغزالي، طبعة مصر، بدون تاريخ.